المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

من المَهْدِ إلى اللّحْدِ كما في القُرآنِ والسُّنّة

الشيخ عبد المنعم مصطفى حليمة
أبو بصير الطرطوسي

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

المَسِيحُ عيسَى ابنُ مريمَ من المَهْدِ إلى اللَّحْدِ

كما في القُرآنِ والسُّنَة

Almaseeh Jesus, the son of Mary, from the Cradle to the Grave as in the Quran and Sunnah

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــــــدَاء

أهدي هذا الكتاب إلى عبدِ الله ونبيّه، ورسولِه السيّد المسيح عيسى ابن مريم عليه السَّلام، وإلى جميعِ أتباعِه وأنصارِه من المؤمنين والمسلمين عند نزولِه إلى الأرض .. فلهُ منِّي عظيم الحُبّ، والتَّوقير، وأحرّ السّلام .. فعليه، وعلى أخِيه محمّدٍ رسُولِ الله، أفضَلُ الصلاةِ والسّلام.

وإنِّي لأسألُ اللهَ تعالى بعلمِه وقدرته ورحمَتِه أن يقدِّرَ لكلماتي هذه أن تصلَ إلى السّيدِ المسيحِ عيسى ابن مريم عليه السَّلام، عند نزولِه إلى الأرض .. عساه أن يخصّني بدعاءٍ منه ينفعُني اللهُ به .. وما ذلك على اللهِ بعزيز.

وصلَّى اللهُ على سيّدِنا ونبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم.

أبو بصير الطرطوسي

5/ 9/ 1442 هـ. 17/ 4/ 2021 م.

ـــ مقـــدمـــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفُسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:102.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾النساء:1.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾الأحزاب:70-71.

أما بعد:

فإنّ أصدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ محدثَةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضَلالةٍ في النار.

وبعد، فإنَّ المسيح عيسى ابن مريم عليه السّلام ليس حَدَثاً ماضياً وحسب، نقتبس منه الفوائد والعِظات، وإنما هو حَدَث ماضٍ، وحاضر، ومستقبل، إليه تنتهي قيادة المسلمين، والنَّاسِ أجمعين، يخضع لسلطانه وحكمه جميع مَن في الأرض .. تجري على يديه كثيرٌ من الآيات والأعمال العظيمة والمباركة، التي تعني وتهم كل

مسلم ــ بل وكل إنسانٍ على مرّ الأزمان ــ أن يتعرّف عليها، وعلى صاحبها، عليه وعلى أخيه محمد أفضل الصلاة والسّلام .. إذ لا منجاة ولا إيمان لأحدٍ إلا بالإيمانِ به، وتصديقِه، ومتابعته عند نزولِه.

من هنا تأتي أهمية الحديث عن المسيحِ عيسى ابن مريم عليه السلام: عن مولده، ونشأته، وصفاته، ونزوله، وأعماله، ودعوته، وشريعتِه، وجهاده، ومماته، ومكانته العظيمة في الإسلام، وكل ما يتعلق به وبحياته، من المهدِ إلى اللحد .. وهذا كله غيب لا سبيل لنا لمعرفته، أو للعلم به، أو الخوض فيه إلا من خلال ما ورد وثبت في أصدق وخير وأحسن الحديث؛ القرآن الكريم، وسنّة نبيّنَا محمد صلى الله عليه وسلم؛ الذي لا ينطقُ عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى.

وقد أسميتُ هذا الكتاب " المسيحُ عيسى ابنُ مريم من المَهْدِ إلى اللحْدِ، كما في القرآنِ والسُّنَّة"، راجياً من الله تعالى القبولَ، والسَّداد، وأن يجعل من هذا العمل مفتاحَ خيرٍ، مِغلاقَ شرٍّ، وسبَبَاً لهداية النّاس، ولكل من يَنشد معرفة الحقيقة في كل ما يتعلق بالمسيحِ عليه السّلام، إنّه تعالى سميعٌ قريب مجيب، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آلِه وصحبِه وسَلَّم.

ـ مريمُ بنت عمران، البَتُولُ العَذْراءُ، عليها السَّلام.[1].

لكي نتعرّف على المسيح عيسى عليه السلام، لا بد أوَّلاً من أن نتعرّف على أمّه الطَّاهرة السيدة البَتُول العَذْراء مريم بنت عمران عليها السلام، وعلى نشأتها وسيرتها النبيلة العطرة، ومكانتها العظيمة في الإسلام، كما ينبغي أن نتعرف على جدّه عمران، وجدته امرأة عمران.

ـ آلُ عِمْرَانَ: عمران رجلٌ صالح، من علماء وصالحي بني إسرائيل، لم يرد في الكتاب والسّنة ما يدل على أنه نبيّ مرسل[2]، اصطفاه الله تعالى وامرأته

---

[1] البتولُ العذراء، أي المنقطعة عن الرجال، التي لم يقربها بشر. ويأتي " البتول"؛ بمعنى الانقطاع والتفرغ للعبادة، كما قال تعالى: [وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً] المزّمِّل:8. أي انقطع إلى الله تعالى بالعبادة انقطاعاً خالصاً وكاملاً، والبتول مريم عليها السلام، تتصف بالمعنيين معاً؛ فهي البتول من جهة انقطاعها عن الرجال، وهي البتول من جهة انقطاعها للعبادة.

[2] كما لم يرد في الكتاب والسنة كامل اسمه ونسبه، إلا أن بعض كتب التفسير تذكر أن نسب عمران ينتهي إلى سليمان ابن داود، إلى إبراهيم عليه السلام، قال ابن كثير: "والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. قال محمد بن إسحاق بن يَسار رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم بن عزاريا ابن أمصيا بن ياوش بن أجريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان بن رخيعم بن سليمان بن داود، عليهما السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم"ا- هـ. من جهة نسب وسلالة أمه، وقد اختلف المؤرخون في تسلسل نسب عمران والد مريم، إلا أن ابن كثير يقول في التاريخ: أن لا خلاف أنه من سلالة داود عليه السلام، ونسبه ينتهي إليه، وكان صاحب صلاة بني إسرائيل.

لتكون منهما سيدة نساء العالمين مريم العذراء البتول عليها السلام، واصطفى الله تعالى مريم العذراء من بين نساء العالمين لأن تكون أماً للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام من غير زوجٍ، ومن دون أن يقربها بشرٌ، فكانت وابنها بذلك آية فريدة للعالمين، واصطفى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بالنبوة والرسالة .. فآل عمران، هم: عمران وامرأته، ومريم وولدها المسيح عليهما السلام، وهو المراد من اصطفاء آل عمران على العالمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران:33. اصطفى؛ أي اجتبى واختار، والغاية من اصطفاء آل عمران، المسيح عيسى عليه السلام، رسول الله، وما سيظهره الله تعالى على يديه من أعمال عظيمة، وآيات ومعجزات باهرات.

ـــ **امْرَأَةُ عِمْرَانَ:** امرأة مؤمنة صالحة نبيلة؛ وهي أم مريم عليها السَّلام، وجدّة المسيح عيسى عليه السلام، وأخت زوجة نبي الله تعالى زكريا[3]، توفي عنها زوجها عِمْرَانَ وهي حاملةٌ بمريم عليها السلام، وهذا يعني أن مريم عليها السلام قد ولدت يتيمة الأب.

لم تكن امْرَأَةُ عِمْرَانَ ذات ولدٍ، ولم تحمل، فاشتهت الولد، ودعت الله تعالى أن يرزقها الولد، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها عمران، فحملت .. فلمَّا تبين حملها، شكرت الله تعالى، ونذرت أن يكون ما في بطنها منصرفاً عن مشاغل

---

[3] لم يرد في الكتاب والسنة ما يعرّف على اسم امرأة عمران، لكن ورد في بعض التفاسير، كالطبري وغيره، أن اسمها " حَنَّة ابنة فاقوذ بن قتيل". وقيل: "حنة بنت فاقود بن قبيل"، والله تعالى أعلم.

الدنيا، منقطعاً للعبادة، وخدمة بيت المقدس، لا حظَّ لها فيه، كما لغيرها من الأمهات من حظوظ في أبنائهن .. ورجت الله تعالى أن يتقبل منها نذرَها، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ آل عمران:35. قال ابن كثير: "﴿مُحَرَّرًا﴾؛ أي خالصاً مفرغا للعبادة، ولخدمة بيت المقدس"ا- هـ.

فلما وضعت حملَها، تبين أن المولود أنثى، والأنثى لا تقوى على العبادة وخدمة بيت المقدس كالذكر، كما أن خدمة بيت المقدس كان موقوفاً على الذكور دون الإناث، قال ابن عباس: "لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور". أي النذر لخدمة بيت المقدس، فقالت معتذرة، مكسوفة الخاطر، إذ كيف توفّق بين تحقيق نذرها، وبين كونها أنثى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ آل عمران:36. تقول ذلك وهي لا تعلَم قدْر هذه الأنثى، وما سيكون لها من شأن عظيم لا يعلمه إلا الله، كما لا تعلم شيئاً عن المهمة المقدسة الفريدة التي تنتظرها، والتي لا تصلح لها أنثى إلا تلك الأنثى .. أنعم وأكرم بها من أنثى!

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ وقبل أن تضع، يعلم بأن حملها أنثى، وما سيكون لهذه الأنثى من شأن عظيم، ومهمة مقدسة لا تقوى ولا تصلح لها إلاها، كل ذلك مقدّر، ومكتوب عنده سبحانه في اللوح المحفوظ، وقبل أن تُخلَق السماوات والأرض، قال القرطبي في التفسير: "وفيها معنى التَّسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شيء، ولم تقله على طريق الإخبار، لأن علم الله في كل شيء قد تقرر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى"ا- هـ.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ آل عمران:36. قال ابن كثير: "أي في القوّة والجَلَد في العبادة، وخدمة المسجد الأقصى"ا- هـ.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ آل عمران:36. مريم؛ أي العابدة، الخادمة للرب، قال القرطبي: "مريم؛ يعني خادم الرب في لغتهم"ا- هـ.

وقال الشّوكاني: "ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرّب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها، فإن معنى مريم: خادم الربّ بلغتهم، فهي وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات"ا- هـ.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران:36. أي أحميها وأجيرها وذريتها بك من الشيطان الملعون المطرود من الرحمة، والمرجوم بالشّهب.

قال ابن جرير الطبري: "تعني بقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾، وإني أجعل مَعاذَها ومَعاذ ذرّيتها من الشيطان الرجيم، بك. وأصل"المعاذ"، الموئل والملجأ والمعقل، فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذرّيتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلاً"ا- هـ.

وفي الحديث، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما مِن مَولودٍ يولَدُ إلَّا والشَّيطانُ يَمَسُّه حين يُولَدُ، فيَستهِلُّ صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيطانِ إيَّاه، إلَّا مَريمَ وابنَها، ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: واقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران:36. البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: "كلُّ بني آدمَ يطعنُ الشيطانَ في جنبيهِ بإصبعِه حين يولدُ، غير عيسى ابنِ مريمَ، ذهب يطعن فطُعن في الحجاب" البخاري. أي وضع الله بينه وبين عيسى عليه السلام حجاباً، فلم يتمكن من الوصول إليه، فأراد أن يطعنه في جنبه، فلم يقدر فطعن الحجاب.

وفي صحيح مسلم: "كلُّ إنسانٍ تلدُهُ أمُّهُ يلكَزُهُ الشَّيطانُ في حُضنيهِ إلاَّ مريمَ وابنَها". وفي رواية: "كلُّ بني آدمَ يمسُّه الشيطانُ يومَ ولدتُه أمُّه، إلا مريمَ وابنَها" مسلم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ آل عمران:37. أي تقبل الله تعالى من حنّة امرأة عمران ابنتها مريم، ورضيها منها وما نذرتها له، وأجرى لها أجرها، ولم يمنع من كونها أنثى أن يتقبلها الله لما حُررت له، بقبول حسَن، فهو ليس مجرّد القبول والرّضا وحسب، وإنما هو قبول حسَن؛ فأحسن نباتها وتربيتها ورعايتها جسدياً، ومادّياً، كما أحسن نباتها ورعايتها وتربيتها خُلُقاً وديناً، فسلك بها مسلك السعداء الأصحّاء من الصالحين القانتين، فبلغت عليها السلام بذلك ذروة الكمال في الخَلْق والخُلُق.

ــ مريم عليها السَّلام في كفالة نبي الله زكريّا.

ومن القبول الحسن؛ أن جعلَ الله تعالى كفالتها ورعايتها إلى نبي الله زكريا، حيث يجتمع فيه العلم والفقه، والنّبوة، كما أنه الأرفق، والأقرب إلى مريم من جهة الرّحم، فهو زوج خالتها، والخالة بمقام ومنزلة الأم، كما في الحديث: "الخالةُ بمنزلةِ الأمِّ" البخاري.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، قرن بينهما "بابني الخالة"، لما بينهما من قرابة ورحم من جهة الخالات، كما في حديث الإسراء: "فإذا أنا بابنَيِ الخالةِ عيسى بنِ مَريمَ ويحيى بنِ زكريَّا صلواتُ اللهِ عليهما، فرحَّبَا ودعَوَا لي بخيرٍ" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "الحسنُ والحُسَينُ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ؛ إلا ابنَي الخالةِ عيسى ابنَ مريمَ و يحيي بنَ زكريا" صحيح الجامع:3181. فبنت الخالة أبناؤها تبَعاً لها يكونون أبناء الخالة، وقيل أن زوجة زكريا هي أخت مريم عليها السلام، والقول الأول أرجح؛ إذ لم يُعرَف عن حنّة أنها ولدت غير مريم، ولدلالة الأحاديث الآنفة الذكر أعلاه، والله تعالى أعلم.

وقد تنازع الأحبار فيما بينهم، وخاصَموا زكريا على كفالة مريم؛ كل واحدٍ منهم يريد أن يفوز بشرف كفالة مريم؛ لأن أباها عمران كان من أكابر علمائهم، وسيداً فيهم، فاحتكموا إلى القرعة، والفائز بالقرعة هو الذي يكفل مريم، ويضمها إليه، وتنتهي الخصومة، وينفض النزاع، وصفة القرعة أن يُلقوا أقلامهم أو عصيهم في نهرٍ جار، وقيل نهر الأردن، وأي الأقلام يثبت فهو الفائز، فثبت قلم زكريا عليه السلام، وجرت أقلامهم، وفاز بالقرعة، وكان ذلك بتقديرٍ وإيجابٍ من الخالق سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ آل عمران:37. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ آل عمران:44.

قال الطبري في التفسير: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بمعنى: وكفَّلها اللهُ زكريا، بمعنى: وضمّها الله إليه. لأن زكريا أيضًا ضمّها إليه بإيجاب الله له ضمَّها إليه بالقُرْعة التي أخرجها اللهُ له، والآية التي أظهرَها لخصومه فيها، فجعله بها أولى منهم، إذ قَرَعَ فيها من شاحَّه فيها.

وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومَه في مريم إذ تنازعوا فيها أيهم تكونُ عنده، تساهموا بقِدَاحهم، فرموا بها في نهر الأردنّ. فقال بعض أهل العلم: ارْتزّ قدح زكريا ــ أي ثبت ــ فقام ولم يجر به الماء، وجرى بقدَاح الآخرين الماء. فجعل الله ذلك لزكريا علَماً أنه أحق المتنازعين فيها بها. وقال آخرون: بل اصّاعدَ قدح زكريا في النهر، وانحدرت قداحُ الآخرين مع جرية الماء وذهبت، فكان ذلك له علَماً من الله في أنه أولى القوم بها.

قال أبو جعفر: وأيّ الأمرين كان من ذلك، فلا شك أن ذلك كان قضاءً من الله بها لزكريا على خصومه، بأنه أولاهم بها، وإذْ كان ذلك كذلك، فإنما ضمّها زكريا إلى نفسه بضمّ الله إياها إليه بقضائه له بها على خصومه عند تَشاحِّهم فيها، واختصامهم في أولاهم بها ا- هـ.

وحاجة مريم عليها السلام إلى الكفيل، يُفيد بأنها ولدت يتيمةً، إذ لو كان والدها حيّاً، لما تقدم أحد لكفالتها مع وجود الأب، فالأب هو الأولى بالكفالة. قال ابن كثير في التفسير: قال ابن إسحاق: "وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة". وإنما قدّر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جمّاً نافعًا وعملاً صالحًا؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها ا- هـ.

ومن لطف الله تعالى بمريم، ورعايته لها، ولكي تتفرغ للعبادة والمناجاة فقط، فقد كفاها الحاجة في رزقها إلى مخلوق، كما كفاها مؤنة البحث عن الرزق، وإعداد الطعام، فكانت الموائد تتنزل عليها جاهزة من السماء، وكان زكريا يعجب لما يرى عندها من الطعام والرزق، فلا هو أحضره، ولا غيره يُسمح له أن يتواصل مع مريم، ليفعل شيئاً من ذلك، ومما شد عجبه أنه كان يجد عندها ثماراً في غير موسمها المعتاد، فيجد ثمار الصيف في الشتاء مع ثمار الشتاء، وثمار الشتاء في الصيف مع ثمار الصيف، حينها سأل زكريا مريم عن مصدر هذا الرزق، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران:37.

قال ابن جرير الطبري في التفسير: يعني بذلك جل ثناؤه: أن زكريا كان كلما دخل عليها المحرابَ، بعد إدخاله إياها المحراب، وجد عندها رزقاً من الله لغذائها. فقيل إن ذلك الرزقَ الذي كان يجده زكريا عندها، فاكهةُ الشتاء في الصيف، وفاكهةُ الصيف في الشتاء.

قال زكريا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، من أي وجه لك هذا الذي أرَى عندك من الرزقَ؟! قالت مريم مجيبة له: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ تعني: أن الله هو الذي رزقها ذلك فساقه إليها وأعطاها. وإنما كان زكريا يقول ذلك لها، لأنه كان ــ فيما ذُكر لنا ــ يُغلِق عليها سبعة أبواب، ويخرج، ثم يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. فكان يعجب مما يرى من ذلك، ويقول لها تعجبًا مما يرى: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ ؟ فتقول: من عند الله.

وأما "المحراب"، فهو مقدم كل مجلس ومصلًّى، وهو سيد المجالس وأشرفُها وأكرمُها، وكذلك هو من المساجد ا- هـ.

ــ مريم عليها السَّلام سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنّة.

ومن عناية الله تعالى بمريم ورعايته لها، أن اصطفاها واختارها من بين جميع نساء العالمين، لعظيم عبادتها، وزهدها، وطهرها، وشرفها، كما اختارها للمهمة العظيمة، والمعجزة الباهرة التي تنتظرها، وهي حملها بعيسى عليه السلام من غير رجل، فطهّرها من جميع أنواع الرجس والآثام، ومن جميع ما يُشينها، ويُنقص من قدرها، من الأمور الماديّة والمعنوية سواء، ما ظهر منه وما بطن، وفضلها بذلك على نساء العالمين، وإلى يوم الدين. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران:42.

قال ابن كثير في التفسير: أن الله قد اصطفاها؛ أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين ا- هـ.

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾؛ أي من الكفر، عن مجاهد والحسن. الزجاج: من سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما، واصطفاك لولادة عيسى ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانها؛ عن الحسن وابن جُريج وغيرهما. وقيل: ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أجمع إلى يوم الصور، وهو الصحيح على ما نبينه، وهو قول الزجّاج وغيره. وكرر الاصطفاء لأن معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى ا- هـ.

وقال أبو حيان في البحر: في معنى ﴿وَطَهَّرَكِ﴾؛ قال السّدي: وكانت مريم لا تحيض، وقال قوم: من الحيض والنّفاس. وروي عن ابن عباس: مِن مسّ الرجال. وعن مجاهد: عمّا يَصِمُ النّساء في خَلْقٍ وخُلُق ودين، ومن الريب والشكوك ا- هـ. ولا تنافي ولا تعارض فيما ورد في معنى التطهير، فمريم البتول عليها السلام أهل لجميع ما قيل في ذلك.

وفي الحديث فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحسنُ والحُسَينُ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ؛ إلا ابنَي الخالةِ عيسى ابنَ مريمَ و يحيي بنَ زكريا، وفاطمةُ سيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ؛ إلا ما كان من مريمَ بنتِ عِمرانَ" [4].

وعن عبد الله بن عباس، أنَّ رسولَ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ خطَّ أربعةَ خطوطٍ ثمَّ قالَ: "أتدرونَ لمَ خططتُ هذِهِ الخطوطَ؟ قالوا: لا، قالَ: أفضلُ نساءِ الجنَّةِ أربعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وخديجةُ بنتُ خوَيْلدٍ، وفاطمةُ ابنةُ محمَّدٍ، وآسيةُ ابنةُ مُزاحمٍ" [5].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: "خيرُ نسائها مريمُ ابنةُ عمرانٍ" متفق عليه. "خيرُ نسائها"؛ قيل: خير نساء الدنيا في زمانها، وقيل: خير نساء الجنة، والراجح أنها عليها السلام خير نساء الدنيا والآخرة معاً.

---

[4] صحيح الجامع: 3181. والحديث أخرجه الترمذي، والنسائي، وأحمد، وغيرهم.

[5] أخرجه أحمد في المسند، وصححه أحمد شاكر في التخريج: 4/ 345.

كما في الحديث، عن أم سلَمة رضي الله عنها: "أنَّ رسولَ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ دعا فاطِمةَ يوم الفتحِ، فَناجاها فبَكَت، ثمَّ حدَّثَها فضحِكَت. قالت: فلمَّا توُفِّيَ رسولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ سألتُها عن بُكائِها وضحِكِها؟ قالت: أخبرَني رسولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ يَموتُ فبَكَيتُ، ثمَّ أخبرَني أنِّي سيِّدةُ نساءِ أَهْلِ الجنَّةِ إلاَّ مريمَ ابنةَ عمرانَ، فضَحِكْتُ" [6].

وفي رواية عند ابن حبّان في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها: قُلْتُ لِفاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: رأَيْتُكِ أكبَبْتِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مرَضِه فبكَيْتِ، ثمَّ أكبَبْتِ عليه الثَّانيةَ فضحِكْتِ؟ قالت: أكبَبْتُ عليه فأخبَرني أنَّه ميِّتٌ فبكَيْتُ، ثمَّ أكبَبْتُ عليه الثَّانيةَ فأخبَرني أنِّي أوَّلُ أهلِه لُحوقًا به، وأنِّي سيِّدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ إلَّا مَريمَ بنتَ عِمرانَ، فضحِكَتُ".

وقال صلى الله عليه وسلم: "كمُل من الرجالِ كثيرٌ، ولم يكمُلْ من النّساءِ: إلا مريمُ ابنةُ عمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ " متفق عليه. والمراد بالكمال؛ كمال الإيمان والعقل، والعلم والعمل، والتناهي والتمام في جميع الفضائل، وخصال البر، والأخلاق الحميدة.

قال النووي في شرح صحيح مسلم 15/ 198: المراد هنا: التناهي في جميع الفضائل، وخصال البر والتقوى ا- هـ.

وقال صلى الله عليه وسلم:" حَسبُكَ مِن نساءِ العالمينَ مَريمُ بنتُ عِمرانَ،

[6] صحيح سنن الترمذي: 3873.

وخَديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، وآسيةُ امرأةُ فِرعونَ "[7]. وقوله " حسبك "؛ أي يكفيك من النساء الزاهدات العابدات الفاضلات البالغات درجة الكمال، اللاتي اجتمعت فيهن أسمى معاني الفضائل والمحاسن، وخصال البر والتقوى، واللاتي يحسن الاقتداء بهنّ:" مَريمُ بنتُ عِمرانَ، وخَديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، وآسيةُ امرأةُ فِرعونَ ". وعند التأمل نجد كل واحدة منهن ـ إضافة إلى اجتماع جميع صفات الخير والبر والتقوى فيهن ــ قد امتازت بخصلة تصلح أن تكون فيها قدوة حسنة لجميع نساء الأرض؛ فمريم بنت عِمران عليها السلام؛ مثل أعلى في الطهر، والعِفَّة، والعبادة، والأمومة، والصدق والتصديق، والصبر على أذى الناس، وخَديجةُ بنتُ خويلدٍ عليها السلام؛ مثل أعلى في التَّصديق، واليقين، والصبر على الدعوة وغربتها، ووقوف المرأة الصالحة بكل ما تملك مع زوجها الصالح في رسالته ومهامه الدعوية، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ عليها وعلى أبيها أفضل الصلاة والسلام؛ مثل أعلى في بر الأب والزوج، والزهد، وفي نصرة دين الله، وآسيةُ امرأةُ فِرعونَ عليها السلام؛ مثل أعلى في اليقين والثبات والصبر على أذى وإجرام الطواغيت الظالمين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: "نساءُ قريشٍ خيرُ نساءٍ رَكِبْنَ الإبلَ؛ أحناه على طفلٍ، وأرعاه على زوجٍ في ذاتِ يدِه". يقولُ أبو هريرةَ على إثرِ ذلك: ولم تَرْكَبْ مريمُ بنتُ عمرانَ بعيراً قطُّ

[7] أخرجه الترمذي، وأحمد، وابن حبان، صحيح الجامع: 3143.

.متفق عليه. أي خيريّة نساء قريش على سائرهنّ من النساء لا تشمل مريم بنت عمران عليها السلام .. وهي مقصورة على من ركبن الإبلَ من النساء.

وعن عمار بن ياسر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لقد فُضِّلَتْ خديجةُ على نساءِ أُمتي كما فضلَتْ مريمُ على نساءِ العالمينَ" [8].

وعن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "سيِّداتُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ بعد مريمَ بنتِ عمرانَ: فاطمةُ، وخديجةُ، وآسيةُ امرأةُ فِرعونَ" [9].

وفي رواية: "سيدةُ نساءِ العالمينَ مريمُ ثم فاطمةُ ثم خديجةُ ثم آسيةُ" [10].

فحرف " ثم"؛ حرف عطف يفيد الدرجة، والتسلسل، والترتيب، الأول فالأول.

قال القرطبي في التفسير: فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة ا- هـ. قلت: وبقوله نقول.

ـــ مريم عليها السَّلام صِدِّيقَة.

ومما يدل على فضل مريم عليها السلام على سائر نساء العالمين، أنها صدِّيقة، قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُ﴾؛ أي أم عيسى عليه السلام ﴿صِدِّيقَةٌ﴾المائدة:75.

---

[8] قال ابن حجر في الفتح 7/ 168: رواه البزار، والطبراني، وهو حديث حسن الإسناد.

[9] السلسلة الصحيحة 4/ 13: قال الشيخ ناصر: إسناده صحيح.

[10] قال ابن حجر في الفتح 7/ 168: قال ابن عبد البر: هذا حديث حسن.

صيغة مبالغة؛ أي عظيمة وشديدة الصِّدقِ والإيمان والتَّصديق لكلمات ربها، وللبشرى بحملها للمسيح عليه السَّلام التي تلقتها من ربها. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾؛ أي بوحيه إليها في شأن حملها بعيسى عليه السلام ﴿وَكُتُبِهِ﴾؛ جميع الكتب التي أنزلت على الرسل من قبلها، والتي منها التوراة، ومن لوازم التصديق بها أن تدعو إلى الإيمان بها، وبما تضمّنته من شرائع وأحكام ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم:12. أي العابدين المطيعين لربهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ﴾؛ أي جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة، وقيل: جبريل وحده، وكان خطابه لها مشافهةً ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ آل عمران:43. أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن مجاهد، قال: لما قيل لها: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ قامت ــ أي للصلاة ــ حتى وَرِم كعبَاها. وبسنده عن الأوزاعي، قال: كانت تقوم حتى يَسيلَ القيحُ من قدَمَيها. وَرُوِيَ: أَنَّ الطَّيْرَ كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى رَأْسِهَا تَظُنُّهَا جَمَادًا لِسُكُونِهَا فِي طُولِ قِيَامِهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ قال ابنُ حيّان في البحر المحيط: وَلْتَكُنْ صَلَاتُكِ مَعَ الْمُصَلِّينَ أَيْ فِي الْجَمَاعَةِ، أَيْ وَانْظُمِي نَفْسَكِ فِي جُمْلَةِ الْمُصَلِّينَ، وَكُونِي مَعَهُمْ وَفِي عِدَادِهِمْ. وفِي قَوْلِهِ: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، تَقْتَضِي الصُّحْبَةَ وَالِاجْتِمَاعَ فِي إِيقَاعِ الرُّكُوعِ مَعَ مَنْ يَرْكَعُ، فَتَكُونُ مَأْمُورَةً بِالصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ ا- هـ. وفي الدرّ المنثور للسيوطي: "يَعْنِي مَعَ الْمُصَلِّين مَعَ قرّاء بَيت الْمُقَدّس". ونحوه قال عدد من المفسرين. وهذا الأمر والتوجيه لمريم عليها السلام فيه تكليف، وتحدٍّ كبير

لأحبار وحاخامات يهود، وطقوسهم الدينية التي تمنع المرأة من الصّلاة في داخلِ معابدهم .. وفي نبوتها؛ هل هي نبيّة أم لا، نزاع بين أهل العِلم .. والقول بنبوّتها قول وجيه ومُعتبر؛ للأدلة الآنفة الذِّكر، الدَّالة على عدمِ انقطاع الوحي عنها، في جميع مراحلِ وأطوار حياتها، ولأن جميع حركاتها وأعمالها كانت منضبطة بتوجيهات الوحي لها .. والله تعالى أعلم.

ــ البُشرَى بولادةِ المسيحِ عيسى بن مريم عليهما السّلام.

لما اكتملت نشأتها الإيمانيّة العظيمة، وأصبحت مستعدة لتلقي أعظم بشرى تتلقاها أعظم امرأة في الأرض .. جاءتها البشرى من الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ آل عمران: 45.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ أي جبريل عليه السلام؛ رسولُ الله إلى أنبيائه، وقيل: جبريل ومن معه من الملائكة.

﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾؛ أي مَن يكون وجوده بكلمة من الله؛ كُن فيكون، من غير أبٍ، ولا سببٍ من أسباب الحمل التي تعرفها النساء، وهي بُشرى عظيمة لمعنيين: لكونها اصطفاها الله من بين نساء الأرض بهذه الآية الباهرة المعجزة، وهذه الكرامة العظيمة، التي ستديم ذكرها بالخير على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، وهي بشرى لما سيكون لهذا المولود العظيم المُبارَك من شأنٍ عظيم في الدنيا والآخرة.

هذا المولود المُبارَك ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾، والذي سمّاه المسيح عيسى هو الله تعالى، وقيل في معنى المسيح: الذي يَسوح في الأرض، ويطوف في أقطارها داعياً إلى الله تعالى، وكأنه بذلك قد مسح الأرض بتطوافه فيها. وقيل: سُمي بذلك؛ لأنه ما مسح بيده على ذي عِلة وعاهة إلا بُرئ بإذن الله. وقيل: لأنه مُسِح بالبركة. وقيل: مسحه الله؛ فطهره من الذنوب. وقال مجاهد، وإبراهيم النخعي: المسيح؛ الصّديق، وقيل غير ذلك[11].

﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ نُسِب إلى أمه؛ لأنه ولد من غيرِ أبٍ ولا والِد، مثله في الإعجاز كخلق الله تعالى لآدم؛ خلقه من تراب من غير أبوين، وكخلق الله لحواء؛ خلقها من ضلع آدم من غير أم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران:59. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ النساء:1. أي خلق حوَّاء من ضلع آدم؛ وهو قول جمهور علماء التفسير، وفي الحديث المتفق عليه: "فإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ". وهو عليه السلام بهذا النسب لأمه؛ ينفي الله عنه ما ينسبه النصارى إليه كذباً بأنه ابن الله!

من صفات هذا المولود المبارك أنه: ﴿وَجِيهاً﴾؛ ذا وجاهةٍ، وقَدْرٍ، وشرفٍ وكرامة، ومنزلة عالية، ومكانة رفيعة، يُوضع له الحب والقبول ﴿فِي الدُّنْيَا﴾؛ بأن

---

11 تفسير ابن عطية، والبحر المحيط، لأبي حيان. قلت: لا تنافي بين جميع هذه الصفات والمعاني؛ فالمسيح عليه السلام يستحقها كلها، وكلمة المسيح تحتملها كلها.

جعله الله من المرسلين، ومن أولي العزم من الرسل، وبما خصه من الشرائع، والكتاب، والمعجزات الباهرات ﴿وَالْآخِرَةِ﴾؛ بما له من المكانة، والمنزلة الرفيعة، والنعيم العظيم، وبما له من الشفاعة بإذن الله، أسوة بإخوانه المرسلين ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ آل عمران:45. مكانة ومكاناً من الله عز وجل .. وسيأتي ــ إن شاء الله ــ الحديث مفصلاً عن صفات وخصائص المسيح عليه السلام.

فلما تلقّت البشرى، لم توجه خطابها للملائكة حاملي البشرى، وإنما توجهت بخطابها مباشرة لصاحب الأمر؛ لمن أرسلهم بالبشرى، لمالِك الملك والأسباب، وخالق الخلق والنواميس، لمن بيده الأمر كله سبحانه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران:47. ﴿قَالَتْ﴾؛ على وجه التعجب، والدهشة، والاستغراب، والاستفهام ﴿رَبِّ﴾؛ فنادت الخالق سبحانه بالربوبية؛ الذي من مقتضى ومعاني " الرب " التفرد بالخلق، والإيجاد، والمُلْك، والرزق، والتربية، والإنشاء، ولأن قضيتها مرتبطة بالخلق والإيجاد من غير الأسباب المعهودة، والمعروفة، ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ كيف، ومن أي وجه سيكون لي ولد، أحمل به، ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؛ لم يجامعني زوج بنكاح شرعي، ولا غيره بزنى ﴿قَالَ﴾ الله لها ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ يخلق منك ولداً من غير أن يمسسكِ بشرٌ ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾؛ أيّاً كان هذا الأمر، ومهما عظم ﴿فَإِنَّمَا﴾ فقط ﴿يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران:47. فيكون مباشرة كما أراد الله له أن يكون، لا رادَّ ولا مُعقب لأمره، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ

كُن فَيَكُونُ﴾ البقرة:117. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾؛ أيّاً كان هذا الشيء، ومهما عظم ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ النحل:40. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس:82. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ غافر:68. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾؛ لشيء أردناه؛ أيّاً كان هذا الشيء ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾؛ إلا كلمة واحدةٌ نقولها كُنْ، فيكون هذا الشيء ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ القمر:50.

وفي سورة مريم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ مريم:16-21.

﴿وَاذْكُرْ﴾؛ واتلُ يا محمد صلى الله عليه وسلم ما ﴿فِي الْكِتَابِ﴾؛ القرآن الكريم ﴿مَرْيَمَ﴾؛ ابنة عمران، وما حصل لها ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ حينما تنحَّت، وانفردت، وابتعدت عن أهلها، وعن الناس وأنظارهم؛ لكي تعبدَ الله ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾؛ مكاناً من جهة الشّرق، من مساكنها، وقيل: شرق المسجد الأقصى. قال ابن عباس: لهذا السبب اتخذ النصارى المشرقَ قِبلةً لهم. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ﴾؛ أي من دونِ الناس ﴿حِجَاباً﴾؛ ساتراً يحجبها، وعبادَتَها عن أعين الناس، حينئذٍ؛ وهي في هذا الجوِّ من العِزلة، والخلوة، والعِبادة، والمناجَاة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾؛ أرسلَ

اللهُ إلى مريم الملَكَ جبريل عليهما السلام، وسُمي جبريل بالرُّوح؛ لأنه يتنزَّل بما فيه حياة ورحمة للعالمين، فاقتحم عليها السّترَ والحجاب، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾؛ فظهر لها بصورة رجل معتدل الخِلْقة والقامَة، شديد الجمال؛ لإظهار طُهرها، وقوة عفّتها، وإيمانها، وعدم تأثرها به، فنجَحت أيما نجاح؛ فكافأها الله على عِفّتها، ومن جنس حسنتها، بغلامٍ زكي نبي، ﴿قَالَتْ﴾ مباشرة، ومن دون تلكؤ أو تأخير، أو كلام آخر ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾؛ أستجير، وألوذُ، وأحتمي ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾؛ الرحيم بي، الذي من مقتضى رحمته أن لا يتخلى عن أمةٍ مثلي، وفي موقفي، وضعفي، فخصت الاستعاذة بـ " الرحمن " من أسماء الله الحُسنى؛ لأنها في موقف يتكلله الخوف من المفاجأة، تحتاج فيه إلى الرحمة، ثم فيه استثارة لمعاني الرحمة عند من تستعيذ منه؛ فذَكَّرته بالرحمن بما يناسب الموقف، ولحظة الحدَث، وهي بذلك تُحذِّره وتَعِظه، ﴿مِنْكَ﴾؛ أيُّها الرجل أن تقترب مني بسوءٍ، ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾؛ إن كنت ذا تقوى؛ تخاف الله، وتتقي عذابه؛ بفعل ما أمر، وبالانتهاء عمَّا نهى وزجَر، فستنتهي وتُمسِك عن الاقتراب مني بسوء جراء استعاذتي بالرحمن منك، ﴿قَالَ﴾؛ لا تخافي؛ فأنا لستُ شيئاً مما ذكرتِ، وظنَنْتِ، وقيل: لما استعاذت مريم بالرحمن، انتفض جبريلُ فَرَقاً من الله، وقال في أقصر زمنٍ، وبأقصر عبارة تُدخل الاطمئنان على نفسها، وتُذهب عنها الرَّوْعَ والخوف: ﴿إِنَّمَا أَنَا﴾؛ جبريل ﴿رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛ أرسلني ربك الذي خلقك، وأحسن تربيتك، وتنشئتِك ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾؛ بإذن الله، وبأمره، وكلمته ﴿غُلَاماً زَكِيّاً﴾؛ جميلاً، مؤمناً، صالحاً، مباركاً، طاهراً وخالياً من الذنوب، والعيوب الظاهرة والباطنة، ﴿قَالَتْ﴾؛ على وجه الدهشة والتعجب ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي

غُلَامٌ﴾؛ كيف لي أن أحمل بغلامٍ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؛ بزواج شرعي، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؛ زانيةً، أقترف الزنى، والحمل بالغلام لا يتأتَّى إلا من خلال هذين السبيلين، وأنا بريئة منهما، ﴿قَالَ﴾؛ جبريل ﴿كَذَلِكِ﴾؛ كما وصفت وذَكرت يا مريم؛ رغم أنك لم يمسسك بشر بزواج ولا نكاح ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ﴾؛ أن يكون لك غلام من غير أبٍ، ولا نكاح ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ على الله سهل ويسير، فالله تعالى لا يعجزه شيء، فإذا أراد لشيء أن يكون؛ قال له كن، فيكون كلمحٍ بالبصر ﴿وَلِنَجْعَلَهُ﴾؛ في حملك وولادتك له من غير أب ولا نكاح، وكلامه في المهد، وما يجري الله على يديه من الأعمال، والمعجزات ﴿آيَةً﴾؛ عظيمةً دالة على قدرة، وعظمة، وتوحيد الخالق سبحانه وتعالى ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ كل الناس، في زمانه، وغير زمانه، وإلى يوم القيامة ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾؛ لك، وله، ولمن آمن وصدّق به، ولما يجري الله على يديه من معجزات، وكرامات، وخير وأعمالٍ، يرتد خيرها على الناس، وللكتاب " الإنجيل"؛ النور الذي سيتنزَّل عليه، والذي فيه هدى ورحمة للناس، يخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور ورحمة التوحيد، ﴿وكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ مريم: 16-21. أمراً نافذاً لا محالة، فالله ــ يا مريم ــ لا يُسأل عمّا يفعل، ولا يُراجَع في أمرٍ قد قضاه.

ــ ولادَةُ المسيح عيسى بن مريم عليهما السّلام.

فلما تلقت مريم البشرى، استسلمت لأمر وقضاء ربها، وصَدقت بكلماته ووعده، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي صانته من أن يمسسها بشر بزواج أو بغيره، ومن كل ما يُريب، وخُصّت بهذا الوصف لشدة عِفَّتها، وطهارتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾؛ الروح؛ هو جبريل عليه السلام،

وإضافة " رُّوحِنَا " إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الخالق الذي يهب الحياة لمن يشاء، وهو الفاعل الحقيقي، وهو الموجد للشيء من عدم، وهو المرسل لعبده روح القدس جبريل عليه السلام، أمره الله بأن ينفخ في جيب دِرعها ــ أي جيب قميصها؛ وهو ما يدخل منه الرأس عند لبسه ــ فسرى النفخُ إلى الرحم، فكان الحمل بعيسى عليه السلام، بإذن الله ومشيئته ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾؛ بوعده لها، بشأن عيسى عليه السلام، وما سيكون من شأنها، وشأنه، وقيل: ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾؛ أي بشرائعه وأحكامه، ﴿وَكُتُبِهِ﴾؛ جميع كتبه التي أنزلها على أنبيائه ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم:12. الطائعين، الخاشعين، المخلصين.

وفي سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي مريم بنت عمران، فأصبحت هذه الصفة لمريم " الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا " صفة لازمة لها لا تنفك عنها؛ كأنها اسم من أسمائها قد عُرفت به، لشدة طهرها، وعفتها، وحفظها لنفسها من أن يمسسها أحد، فحفظت فرجها من الحرام والحلال سواء، انقطاعاً لعبادة ربها .. فعندما يُقال " الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا"، يُعرف مباشرة أن المراد هي مريم عليها السلام، ومن دون أن يُذكَر اسمها، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي فنفخنا في مريم عن طريق عبدنا جبريل عليه السلام؛ فنفخ في جيب درعها كما تقدم، فسرى النفخ في جسدها الطاهر إلى أن استقر النفخ في الرحم، فوقع الحمل، وكان المولود عيسى عليه السلام بإذن الله ومشيئته، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾ باهرة دالة على قدرة، وعظمة، وتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء:91. كل العالمين؛ الإنس والجن، وعلى مدار الأزمان، وإلى يوم الدّين.

فإن قِيل: علام قيل في سورة التحريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾، وفي سورة الأنبياء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾..؟

أقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ أي في جيب درعها .. ولما كان ابتداء النفخ في جيب الدرع، ثم سرى وانتشر النفخ في جسد مريم كله، إلى أن استقر النفخ في الرحم، جاء التعبير عن هذه المعاني كلها بـ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾، والله تعالى أعلم.

ولما وقع الحمل، وظهرت علاماته، وحان وقت الوضع، علا مريمَ الهمُّ والحزن، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ مريم:22-26.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ حملاً طبيعياً كما تحمل النساء؛ تسعة أشهر .. ولما بدت عليها علامات الحمل، واقترب ميعاد الوضع، وبدأ اليهود وأحبارهم يتكلمون عنها بسوء، ويخوضون فيها بغير حق، ويظنون بها الظنون .. ضاقت بهم ذرعاً، ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾؛ فنأت بنفسها وحملها ﴿مَكَاناً قَصِيّاً﴾؛ مكاناً بعيداً نائياً عن أعين الناس .. وهي هائمة على وجهها ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾؛ اشتد عليها ألم طلق الولادة، وكثرت حركات ورفسات المولود المبارك .. وكأنه يقول لها: هنا يا أم مكان ولادتي .. لن تبرحي هذا المكان .. قد حان وقت ميلادي .. فألجأها ألم الطلق والمخاض ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾؛ لتستريح عنده؛ وهو جذع يابس، من غير غصون

ولا ثمر .. فهي نخلة متآكلة لم يتبقَ منها إلا جذعها اليابس .. فعند هذا الجذع ــ وهو على قول جمهور المفسرين في قرية بيت لحم من فلسطين ــ وضعت مولودها المبارك المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام .. وهي بين آلام الوضع، وآلام الخوف من الفضيحة، وما يمكن أن يقول عنها الناس، وهي البتول الطاهرة: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾؛ أي قبل أن أحمل وأضع مولودي هذا، فأستريح من هذا البلاء الشديد، ﴿وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾؛ أي شيئاً حقيراً، مُهمَلاً، لا يُؤبَه له، ولا يكترث له الناس .. وهي في هذا الكرب الشديد، وبعد أن قالت ما قالت ﴿فَنَادَاهَا﴾؛ الملَك جبريل عليه السلام، ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾؛ من مكانٍ أسفل من مكانها، وهو تعبير يفيد أنها كانت في هضبة مرتفعة، يوضح هذا المعنى قوله تعالى في سور المؤمنون: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المؤمنون:50. قال ابن عباس وغيره من السلف: "الربوة؛ المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات"، والهواء النقي الطلق، وهو أكثر ما تحتاجه المرأة النَّفساء عند ولادتها. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾؛ ولا تبتئسي، ولا تجزعي .. انظري ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ جدولاً من الماء؛ وهو النهر الصغير، أوجده لك خصيصاً لتشربي منه، وها هي النخلة تُكسى بالخضار والثمار، ويطيب ثمارها وعطاؤها؛ لتأكلي منها، ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾؛ وهي في هذا الضعف والحاجة، والعناية الربانيّة لها، يأمرها الله بأن تهز بجذع النخلة، ليعلمنا أن الأرزاق مع التوكل تُكتسب بالأسباب ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾؛ طرياً مستوياً، طيباً نافعاً، وسقوطه لن يأثر على جودته وتماسكه، ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾؛ حتى تستردين

قوتك وعافيتك، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ أي طيبي خاطراً ونفساً، ولا تحزني؛ فالله سوف يدافع عنك، ولن ينالك مكروه، وما تخشينه من آلام وعار الفضيحة لن يتحقق، ولن يطالك منه شيء، بل سيرفعك الله مقاماً عليّاً .. ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ بمولودك الجميل الزكي، النبي، وما سيكون له من شأن عظيم .. وكل ما عليك فعله، عندما تذهبين بطفلك إلى قومك، أن لا تتكلمي، ولا تجيبي أحداً، وأن تدَعي مهمة الكلام والإجابة عن تساؤلات الناس لوليدك الرضيع المبارك، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾؛ يريد أن يكلمك ويسألك ﴿فَقُولِي﴾؛ بالإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ صوماً عن الكلام، ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ مريم:22-26. أحداً من الناس أيّاً كان، ومهما ألح في الطلب والسؤال .. لأن المعجزة الكبرى ستظهر بعد هذا الإمساك عن الكلام، وبسببه.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إلَّا والشَّيْطانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيْطانِ إيَّاهُ، إلَّا مَرْيَمَ وابْنَها، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ: واقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُها بكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران:36. متفق عليه.

وفي رواية عند البخاري: "كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطانُ في جَنْبَيْهِ بإصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ، غيرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ في الحِجابِ". أي طعن بالمشيمة التي تحيط بالولد.

وفي رواية عند مسلم: "كلُّ إنسانٍ تلدُهُ أمُّهُ يلكَزُهُ الشَّيطانُ في حُضنيهِ إلاَّ مريمَ وابنَها". وفي رواية: "ما مِنْ مولودٍ وُلِدَ، إلَّا نَخَسَهُ الشيطانُ، فيَستهِلُّ صارخاً مِنْ نخْسِةِ الشيطانِ، إلَّا ابنَ مريمَ وأُمِّهِ".

وفي حديث الإسراء الطويل: "فانطلقت تهوي بنا ــ أي الدابة ــ يقع حافرُها حيث أدرك طرْفُها، ثم بلغنا أرضاً فقال جبريل: انزل، فنزلت، ثم قال: صل فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بمدين؛ صليت عند شجرة موسى عليه السلام، ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، فقال: انزل، فنزلت، فقال: صل فصليت، ثم ركبنا، قال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام المسيح بن مريم ..."[12].

ــ كلامُ المسيح عليه السلام وهو في المهد.

لا شكّ أن ما رأته مريم عليها السلام، وما سمعته من الملَك، قد هدَّأ من روعها، وأزال عنها الخوف، وزادها ثباتاً ويقيناً بأن الله تعالى لن يتخلى عنها، وأنه تعالى سيُدافع عنها .. وأنها ما كانت تخشاه من عار الفضيحة، لن يصيبها منه شيء، فالله تعالى سيُبطله .. كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ

[12] أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، 2/ 355، وقال: إسناده صحيح.

الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ 27-33.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾؛ تحمل وليدها الرَّضيع المسيح عيسى عليهما السلام، وهو لا يزال في الساعات الأولى من ولادته، بكل سكينة، وثبَات، ووقار، ومن غير خوفٍ من مخلوق، أو اكتراث لمخلوق، وما يمكن أن يقوله الناس عنها .. أتت به قومها تحمله، حيث يتواجدون، ويجتمعون، ويتواجد أحبار يهود، ومعها معيّة الله، فالله تعالى معها يَسمع ويَرى .. فالتعبير القرآني يفيد جميع هذه المعاني .. وقبل أن يتبينوا، أو يسألوا مريمَ سؤال استرشاد، ويحسنوا الظن بمن لا يُعرف عنها إلا كمال الطهر، والعفة، والصون .. بمن إذا ذُكِرَ الطُّهر، ذُكرت، وإذا ذُكرت ذكر الطهر؛ وكأنهما شيء واحد لا ينفك أحدهما عن الآخر .. بدلاً من أن يفعلوا شيئاً من ذلك بادؤوها بالقذف، وسوء الظن، والبهتان!

﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ منكراً عظيماً؛ يريدون الزِّنا، وكما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ النساء:156. هذا البهتان العظيم؛ هو رميها بالزِّنا، وقد استمر اليهود بهذا البهتان العظيم، وهذا التكذيب لها ولعيسى عليهما السلام، حتى بعد أن برأها الله، وبعد ظهور الآيات والمعجزات على يد وليدها المسيح عليه السلام.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾؛ هارون رجل صالح من بني إسرائيل، عُرف بالصلاح، والتقوى والعفة، والمراد؛ أي يا من تتشبهين بتقوى وصلاح، وعفة هارون، وتنسبين نفسك إليه، كيف يليق بك أن تقعي بهذا المنكر العظيم ..؟!

وفي الحديث، عن المغيرة رضي الله عنه، قال: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقالوا: إنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ يا أُخْتَ هَارُونَ، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بكَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا قَدِمْتُ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَأَلْتُهُ عن ذلكَ، فَقالَ: "إنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ" مسلم. أي ليس هو هارون النبي؛ أخو موسى عليهما السلام .. وإنما هو رجل صالح من بني إسرائيل، حيث كانوا يسمون أبناءهم بأسماء الأنبياء والصالحين قبلهم.

وفي رواية عند الترمذي، قال: بعثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ إلى نجرانَ، فقالوا لي: ألستُمْ تَقْرَؤُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ، وقد كانَ بينَ موسى وعيسى ما كانَ، فلم أدرِ ما أجيبُهُم. فرجَعتُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ فأخبرتُهُ، فقالَ: "ألا أخبرتَهُم أنَّهم كانوا يُسمُّونَ بأنبيائِهِم والصَّالحينَ قبلَهُم".

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾؛ لم يكتفوا بما تقدم من طعن وقذف .. بل استمروا بالوعظ المبطن بالتهكم، والقذف، وسوء الظن؛ أي لم يكن أبوك رجلاً سيئاً يُقارف الفاحشة، بل كان رجلاً صالحاً، كذلك أمك كانت امرأة صالحة، لم يعرف عنها أنها كانت تزني، والبنت في العادة تتأثر، وتقتدي بأبويها، وفعلك المنكر هذا لا يدل على أنك تتأسين بأبويك، وبما كانا عليه من صلاح .. فمن هو أسوتك في هذا المنكر العظيم الذي اقترفته؟!

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؛ ولم تزد على ذلك؛ فجواب ما تسألون عنه، التمسوه عند هذا الطفل الرضيع، وليس عندي .. فأنا أنسحب من المواجهة، وأدع مواجهتكم يا أحبار يهود لطفلي الرضيع؛ فهو سيتولى مواجهتكم، والإجابة على تساؤلاتكم، وافتراءاتكم .. وقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؛ يفسر قوله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾؛ أي فقولي بالإشارة، وليس لفظاً، ولأن اللفظ قد يجر إلى لفظٍ آخر، ومن قال جملة قد يُطالب بغيرها، بخلاف الإشارة؛ فإنها تحسم الجدال ــ وإن كان من طرف واحد ــ وتوقفه عندها.

﴿قَالُوا﴾؛ على وجه التعجب، والتهكم، والاستنكار ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؛ كيف تطالبيننا بأن نتوجه بأسئلتنا وكلامنا إلى هذا الطفل الرضيع، الذي لا يزال في فراشه، ولم تمض على ولادته سوى ساعات .. أتستخفين بعقولنا يا مريم؟!

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾؛ أول إعلان وبيان، وأول كلمة ينطق بها المسيح عليه السلام وهو في المهد، وعلى مسامع الأحبار والأشهاد ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾؛ كلمة مدوية يبلغ مداها الآفاق، تُبطِل الباطلَ وتُحق الحقَّ، ينفي بها عن نفسه الألوهية والربوبية، أو أن يكون ابن الله، كما يدعي النصارى، ويقرر ويعلن للعالَم أجمع أنه عبد الله، وأنه مخلوق لله، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً وموحداً لله، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾؛ أي لن يأنف ويتكبر، ولن تفيد الزمن الحاضر، والمستقبل، وإلى آخر ساعة ودقيقة من حياته ﴿أَن يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾ النساء:172.

وهو بإعلانه الخالد هذا ينفي عن الله تعالى فرية الشرك، أو أن يكون له شريك مما خَلَق .. قبل أن ينفي عن أمّه فريةَ الزِّنى!

﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾؛ أي الإنجيل، فعبر بالماضي للدلالة على المستقبل، وما سيكون في المستقبل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾؛ نبياً ورسولاً أبلّغ رسالات ربي، كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ البقرة:87. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ النساء:171. ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ المائدة:75. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾ الصف:6.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾؛ ذا خير ومنفعة عظيمة للناس في شؤون دينهم ودنياهم، وفي أي زمان ومكان أكون .. هذه البركة هي من الله تعالى وحده؛ فالله تعالى هو الذي جعلني مباركاً، ولست مباركاً بذاتي من دون الله، يرد الفضل كله لله تعالى شكراً وعرفاناً، وتبياناً للتوحيد حق الله تعالى على العبيد.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، زكاةُ المال، وزكاة النفس، وكل ما أوصى الله به أنبياءه، أوصى به أممهم وأتباعهم، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾؛ أي ما دمتُ على قيدِ الحياةِ، وفيه أن عيسى عليه السلام، سيموت كما يموت غيره من البشر، وسيصيبه في ذلك ما يُصيبهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الأنبياء:35. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن:27.

وهو بذلك ينفي عن نفسه صفة الألوهية؛ إذ الإله لا يموت، ولا ينبغي له أن يموت.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾؛ مُحسناً إليها، ومطيعاً لها، وشاكراً لفضلها وحقها علي، وخصَّ والدته بالذّكر لينفي عن نفسه أن يكون له أب، أو أن يكون ابناً لأحد، وهو بذلك يبرئ والدته من تهمة وفرية الزِّنى بطريقة خفيّةٍ راقية، غير جارحة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾؛ أي ولم يجعلني الله طاغية مستكبراً عن عبادته وتوحيده، مترفعاً عن طاعة وخدمة والدتي، ولا فظاً ولا غليظاً، ولا متعالياً على الخلق، ولم يجعلني شقياً بمعصيته، بل جعلني سعيداً في غاية السعادة والهناء بطاعته وعبادته وتوحيده، في الدنيا والآخرة.

﴿وَالسَّلَامُ﴾؛ التحية، والسلامة، والأمان من الله تعالى ﴿عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ 27-33. هذه المواطن الثلاثة: الميلاد، والموت، ويوم البعث والنشور، أحوج ما يكون فيها الإنسان إلى الأمان، والسلامة، والتحية من الله تعالى، فخصت بالذكر لأهميتها، وللدلالة على ما دونها من الأزمنة والأوقات.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مريم: 34-37.

﴿ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي ذلك الذي تقدم ذكره، وبالصفات التي ذُكرت، هو عيسى ابن مريم عليه السلام، وتلك هي حقيقته وصفته .. وهذا الذي قلناه عن عيسى ابن مريم هو ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾؛ قول الله الحق، الذي لا يقول إلا الحق؛ الذي ما بعده إلا الباطل والضلال ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ يشكّون، ويمارون، ويجادلون بغير عِلم، وهم فريقان: فريق جفا في المسيح عليه السلام؛ فكفَروا به، وكَفَّروه، وكَذَّبوه، ورموه ظلماً وكذباً بأنه ابن زِنى، والعياذُ بالله، وهم اليهود .. وفريق آخر غالى به؛ فقالوا عنه كذباً وزوراً هو ابن الله، ومنهم من قال: هو الله، وثالث ثلاثة، وهم النصارى، وكلا الفريقين على باطل، وضلال مبين .. الفريق الأول اليهود طعنوا بالمسيح وبأمه عليهما السلام، والفريق الثاني النصارى طعنوا بالله عز وجل، ونسبوا له الولد، والشريك .. والمسيح عليه السلام بريء من الفريقين، ومن قولهما الباطل والآثم.

﴿مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾؛ نفي للولد وللشريك، وتنزيه للخالق سبحانه أن يكون له ولد، أو أن يكون له شريك في الربوبية أو الألوهية، فيه رد على فريق النصارى الذين غالوا في المسيح عليه السلام، وقالوا عنه أنه ابن الله، وعبدوه مع الله .. والولد يُتخذ من أجل أن يكون عضداً ومعيناً لوالده، والله تعالى غني عن ذلك، وعن جميع مخلوقاته، ومن غناه سبحانه أنه ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾؛ أراد أمراً أياً كان هذا الأمر، ومهما كان عظيماً وكبيراً، وخارقاً للعادة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ من الغيب والعدم إلى الوجود، والشهود.

﴿وَإِنَّ اللهَّ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾؛ معطوف على كلام المسيح عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهَّ﴾؛ فابتدأ المسيح كلامه بتقرير التوحيد، وأن الله تعالى هو المعبود بحق، وأن مقام عيسى عليه السلام مقام العبد والعبودية لله، وختمه بالدعوة للتوحيد، وإلى عبادة الله تعالى وحده، لا شريك له ﴿وَإِنَّ اللهَّ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ هو الذي خلقني، وخلقكم، والخالق هو الذي يجب أن يُعبَد، وهو الذي يستحق أن يُعبَد، فليس من يخلق كمن لا يخلق في الحقوق، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ فخصوه وحده بالعبادة الظاهرة والباطنة، دون أحدٍ سواه، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الأعراف:191. ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ النحل:17.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه؛ وهو أن تعبدوا الله تعالى ولا تُشركوا به شيئاً، هو الصراط المستقيم الموصل إلى النّجاة، وإلى رضا الله تعالى، وإلى الجنة .. هو الصراط المستقيم، وما سواه من السبل والطرق؛ فهي سبل ملتوية؛ باطلة وضالة، تضلكم عن الحق، وعن الصراط المستقيم، وترديكم في سواء الجحيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام:153.

وإلى قوله تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ ينتهي كلام المسيح عليه السلام وهو في المهد؛ فلم يعرف عنه أنه تكلم في المهد بعد هذا، وغير هذا، أو أكثر من هذا.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ وهم اليهود والنصارى، فاختلفوا في حقيقة المسيح عليه السلام، وفي الموقف منه؛ فاليهود كذّبوا، وجحدوا، وطعنوا بالمسيح عليه السلام، والنصارى غالوا في المسيح عليه السلام؛ فرفعوه إلى مرتبة الألوهية والربوبية، وعبدوه من دون الله .. وكلا الفريقين على ضلال مبين، وهما فيما انتهجاه وذهبا إليه، كفر صريح وبواح بالله عز وجل، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مريم:34-37. وعيد شديد بأن لكلا الفريقين، وغيرهم من الكافرين، عذاب أليم يوم القيامة. وقال تعالى في سورة النساء، في اليهود الذين جفَوا، وجحدوا، وطعنوا: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ النساء:156. أي بسبب كفرهم، وقولهم الظالم الشديد الظلم، والكذب الشديد الكذب على مريم البتول الطاهرة عليها السلام، عندما رموها كذباً وظلماً وافتراء بالوقوع في الزنى .. وهي من ذلك كله براء!

ومن الصفات التي وصِف بها المسيح عليه السلام في سورة آل عمران: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾؛ طفلاً وهو لا يزال في الفراش، وكلامه في المهد هو ما تقدم ذكره أعلاه في سورة مريم، ﴿وَكَهْلًا﴾؛ كبيراً عندما يوحي الله إليه، يكلم الناس كلام الأنبياء والمرسلين، ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران:46. وهو من الصالحين في قوله، وفعله، وظاهره وباطنه، وفيما يأمر به، وينهى عنه، وفي جميع أحواله، فلا يصدر عنه إلا الصَّلاح والخير .. وهو مثل أعلى في الصدق، والوفاء، والتواضع.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلاثَةٌ"؛ وعَدَّ منهم " عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ " متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من سَرَّه أن ينظر إلى تواضعِ عيسى، فلْينظرْ إلى أبي ذرٍّ" [13]. إشارة إلى عظم تواضع عيسى عليه السلام، وكمثلٍ أعلى في التواضع، يُضرب به المثل، ويحسن التشبه به. ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم: "ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّتِ الغبراءُ، من ذي لهجَةٍ أصدَقُ، ولا أوْفَى من أبي ذرٍّ شِبْهُ عيسى بنِ مريمَ" [14].

فإن قيل: أين صراحة التعبير في تبرأته لأمه من تهمة وفِرية الزّنى، المشكلة الأساس التي كانت تواجه مريم عليها السلام، وتخشاها ...؟

والجواب عن هذا السؤال من وجهين: أولهما؛ ليس من البر، ولا من أدب النبوة أن يأتي التعبير في تبرئته لأمه صارخاً بهذا الوضوح " أمي بريئة من الزنى"؛ فهذا مما يجرح مشاعر مريم الطاهرة البتول عليها السلام .. فهي أعظم وأشرف من أن تُبرأ بهذه الطريقة الصارخة الفاضحة، الفجّة .. وهي أعظم وأشرف وأرفع من أن يُشار إليها من وليدها البار بكلمة " الزنى"، حتى لو كان ذلك في معرض النفي والتبرئة، والدفاع .. حاشا عيسى عليه السلام البار بوالدته، والمطيع لها، والمسدد من ربه، أن يفعل شيئاً من ذلك!

---

13 صحيح الجامع: 6292.

14 أخرجه الترمذي وغيره، صحيح الجامع: 5538.

ثانيهما؛ أن المسيح عليه السلام، قد برأ أمه بطريقة راقية غير مباشرة، تليق به وبأمه البتول، فهو برَّأها من فِرية الزِّنى بقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾؛ ومن يؤتيه الله الكتاب ويجعله نبياً، لا يمكن أن يكون ابن زنى، وكذلك بقية الصفات والخصال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾؛ وهذه خصال لا يمكن أن تتحقق أو تجتمع في مولود يأتي عن طريق الزنى!

ـ مَثَل عيسى كمثل آدم عليهما السلام.

لمن يستعظم وجود عيسى عليه السلام من غير أب، وأنه ليس له مثَل في الوجود، وهذا مدعاة لأن يُعبَد من دون الله، يُقال له: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران: 59. أي خَلْقُ الله تعالى لعيسى عليه السلام يُشبه خَلْقه لآدم عليه السلام؛ فكما أن الله تعالى خلق المسيح عليه السلام من غير أب، بكلمة منه " كن " فكان، كذلك خلق آدم عليه السلام من تراب، من غير أبوين، بكلمة منه " كن"، فكان .. وهو في عرف الأسباب أعجب وأغرب وأشد ممن يأتي من أم من غير أبٍ .. لكن الله تعالى لا يعجزه شيء، فكل شيء مهما عظم، فعليه هينٌ ويسير، وهو لا يستغرق لكي ينتقل من عالم الغيب والعدَم إلى عالم الوجود والشهادة سوى أن يقول ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وكما لا يجوز أن يُعبَدَ آدم لهذا السبب، لا يجوز أن يُعبَد عيسى لهذا السبب.

أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره، وغيره، عن ابن عباس، وغيره من السلف، أن رهطًا من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم ــ وكان فيهم السيّد والعاقِب؛ والسيد؛ عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، والعاقِب أميرهم، وهو ذو رأيهم، وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه وحكمه، واسمه عبد المسيح ــ فقالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: ما شأنك تذكر صاحِبنا؟ فقال: مَن هو؟ قالوا: عيسَى؛ تزعم أنه عبدُ الله! فقال محمد صلى الله عليه وسلم: "أجل؛ إنه عبد الله". قالوا له: فهل رأيت مَثَلَ عيسى، أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل صلى الله عليه وسلم بأمر ربِّنا السميع العليم، فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِّ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران: 59.

وفي سورة الزخرف، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾؛ لآدم عليه السلام، وأن وجود المسيح وخلقه شبيه بوجود وخلق آدم عليهما السلام، وأن الله تعالى كما خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فقد خلق آدم عليه السلام من تراب، من غير أبوين، وما كان ذلك داعياً لعبادته من دون ــ أو مع الله ــ، فضلاً عن أن يُعبد المسيح عليه السلام من دون ــ أو مع ــ الله .. وللدلالة على سعة قدرة الله تعالى المطلقة، التي لا يمتنع عنها شيء، ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾؛ أي كفار قريش ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾؛ أي يضجون من هذا المثل، ويضحكون، ويعرضون .. وقالوا: ما أراد محمد بهذا المثل إلا أن نعبده، كما عُبِد المسيح، وأن نتخذه رباً كما اتخذ النصارى المسيحَ ربّاً .. ثم أوحى إليهم الشيطان بفكرة شيطانية، ظنوا أنهم بها سيغلبون،

ويحرجون النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا﴾؛ الأصنام التي نعبدها، ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؛ أم المسيح .. فإن قلتم المسيح، فالمسيح أيضاً يُعبَد من قبل النصارى من دون الله، وأنتم تقولون أن كل ما عُبد من دون الله فهو في النار .. وهذا يعني أن ابن مريم في النار .. واستدلوا على جهلهم وفكرتهم الشيطانية هذه بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الأنبياء:98. وقالوا: نحن نرضى بأن تكون آلهتنا مع عيسى، وعُزير، والملائكة؛ لأن كل هؤلاء مما يعبدون من دون الله ..؟!

قال أهل العلم والتفسير: قال تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾؛ ولم يقل: إِنَّكُمْ وَمَن تَعْبُدُونَ، ﴿وما﴾؛ اسم يُطلق لغير العاقل، لا يشمل الأنبياء والصالحين. والآية الكريمة نزلت في المشركين، والأصنام التي يعبدونها من دون الله.

ويُقال: إن الملائكة، والأنبياء، والأولياء الصالحين الذين يُعبدون من دون الله تعالى لا يرضون بأن يُعبدوا من دون الله، بل هم برآء من الشرك، وممن يعبدونهم من دون ــ أو مع ــ الله .. ويبغضون ذلك أشد البغض، ويحذرون منه أشد التحذير .. ومن كان كذلك فالوعيد لا يطاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة:116.

ويُقال أيضاً: كل من رضي ــ ممن يعقل من الإنس أو الجن ــ بأن يُعبَد من دون ــ أو مع ــ الله، فالوعيد يطاله، فهو في جهنم وبئس المصير، وهو من حصب

جهنم ووقودها، ومن وأهلها والعياذ بالله، كالفراعنة والطواغيت الذين ادعوا الألوهية، وزعموا لأنفسهم خصائص الألوهية، وعُبدوا من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا﴾؛ أي الطواغيت وأتباعهم، العابد والمعبود من دون الله ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي وهم في جهنم ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾؛ يتلاومون، ويتصايحون، ويراجعون بعضهم بعضاً بالملامات ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء:96-98. فنسويكم بالعبادة، فنعبدكم كما يُعبد رب العالمين، وكنتم ترضون منا ذلك، بل وتحضوننا على ذلك وتأمروننا به، وتزينونه لنا!

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾؛ أي ما ضربوا لك يا محمد هذا المثل؛ وهو استدلالهم على باطلهم وشركهم بعيسى عليه السلام، وعبادة النصارى له، استرشاداً، ورغبة منهم في معرفة الحق .. بل ما ضربوه ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾؛ رغبة في الجدل، والخصومة، وإحقاق الباطل، وإبطال الحق ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شديدي الخصومة والمعاندة.

﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي عيسى عليه السلام، الذي يجادلون في حقيقته ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾، من عباد الله، يعبد الله ويوحّده ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ بالنبوة، والرسالة، والآيات ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الزخرف:57-59. مثلاً دالاً لهم على قدرة الله تعالى، وعلى توحيده، ومَثلاً يُحتذى ويُقتَدَى به.

وفي الحديث، عن ابن عباس رضي الله عنه، أنّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال لقريشٍ: يا معشرَ قريشٍ إنَّهُ ليس أحدٌ يُعْبَدُ من دونِ اللهِ فيهِ خيرٌ، وقد عَلِمَتْ قريشٌ أنَّ النصارى تعبدُ عيسى بنَ مريمَ وما تقولُ في محمدٍ. فقالوا: يا محمدُ ألستَ تزعمُ أنَّ عيسى كان نبيًّا وعبداً من عبادِ اللهِ صالحاً، فلئن كنتَ صادقًا فإنَّ

آلهتهم لكَما تقولون ــ أي ليس فيهم خيراً! ــ قال: فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قال: يضجُّون [15].

ــ براءة المسيح عليه السلام من دعوى الألوهية، أو أن يكون ابناً لله.

قد تقدمت الإشارة إلى نفي المسيح عليه السلام عن نفسه بشدة صفة الألوهية، والربوبية، أو أن يكون ابن الله، وأكد أن مقامه لا يعدو أن يكون عبد الله ورسوله، وأنه لن يستنكف عن عبادة الله تعالى، حاشاه .. ولأن قضية التوحيد هي القضية العظمى والأهم والأساس في دين الله، ولأن الشرك ظلم عظيم لا يوازيه ولا يعلوه ظلم، وكفر أكبر يُوبق صاحبه، ويُحبط عمله، ولا يُقبل معه عمل، ولأن فتنة مقالة النصارى عن عيسى عليه السلام، كانت ولا تزال آثارها وآثامها جاسمة على صدور وحياة الناس، وهي الأكثر اتساعاً وانتشاراً بين الناس، لأجل هذا كله فقد عنى القرآن الكريم اهتماماً ظاهراً بإبطال دعوى النصارى، وقولهم زوراً وبهتاناً عن المسيح بأنه الله أو ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، وبرأ المسيح وأمه مريم عليهما السلام من هذا الشرك والكفر، وهذا البهتان العظيم.

كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ النساء:171.

---

[15] أخرجه أحمد في المسند، 4/ 329، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَللّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة:17.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المائدة:72.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾؛ هذا سؤال مكاشفة من عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيء؛ ليظهر علمه والحقيقة على لسان عبده عيسى عليه السلام، توبيخاً وتقريعاً للنصارى الذين عبدوا المسيح وأمه من دون الله، وقيل أن هذا السؤال التوبيخي التقريعي يكون يوم القيامة في حضرة المسيح وأمه عليهما السلام، وجميع من عبدهما من النصارى: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ المائدة:116-119. وقوله ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾؛ أي لما قبضتني ورفعتني حيّاً إلى السماء، وغبتُ وانقطعت عنهم؛ لأن

النصارى اتخذوه وأمه إلهين في هذه الفترة؛ بعد أن قبضه الله ورفعه إليه حيَّاً، أما بعد نزوله إلى الأرض فالجميع يؤمن به، ولا يُعرف بعد وفاته وموته، ودفنه في الأرض، من عاد للقول عليه ثانية بأنه وأمه إلهين من دون الله .. وهذا معنى سنأتي للحديث عنه في موضعه ــ إن شاء الله ــ بشيء من التفصيل.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُلقَّى عيسى حُجَّتَهُ؛ فلقَّاهُ اللهُ في قولِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ؟ قالَ أبو هريرةَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ: "فلقَّاهُ اللهُ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، الآيةَ كلَّها" [16]. قلت: حتى هذا القدر من الحجة والجواب، فهو ليس من عند عيسى عليه السلام، من دون الله، بل الله تعالى هو الذي لقَّنه إيّاه، وهداه إليه .. فكيف ــ وهو بهذه الحاجة إلى ربه ــ يكون إلهاً مع ــ أو من دون ــ الله؟!

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة:30-31. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾؛ عُزير رجل من صالحي بني إسرائيل، وفي نبوته خِلاف، ﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ عيسى ابن مريم ابنُ الله، ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ هذا القول الشركي الباطل الذي يقولونه عن عُزير، وعن عيسى بن

16 صحيح سنن الترمذي: 3062.

مريم عليه السلام، ما هو إلا مجرد قول وزعم باللسان، ليس له رصيد في الوجود والحقيقة، وهم بقولهم الكفري الباطل هذا ﴿يُضَاهِؤُونَ﴾؛ يُشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾؛ الأمم الكافرة من قبلهم، ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي لعنهم الله بكفرهم؛ كيف يُصرَفون، ويَعدلون عن الحق والتوحيد إلى الشرك والتَّنديد. ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾؛ وهذا نوع آخر من الشرك قد وقعوا فيه، فشركهم لم يقتصر على عبادة عُزير، وعيسى عليه السلام، وصفة هذا النوع من الشرك، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، هو أنهم أطاعوا واتبعوا الأحبار والرهبان في تحليلهم لما حرم الله، وتحريمهم لما أحل الله، فطاوعوهم واتبعوهم في التحليل والتحريم، والتحسبن والتقبيح بغير سلطان من الله، فذلك كان اتخاذهم أرباباً من دون الله، وتلك كانت عبادتهم لهم من دون الله، ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾؛ وهم مع هذا الزيغ والضلال عن الحق، اتخذوا المسيح بن مريم إلهاً ومعبوداً من دون الله ﴿وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ﴾؛ نفي جاءت بعده أداة استثناء يفيد الحصر والقصر، أي لم يُؤمروا بشيء إلا ﴿لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة:30-31. والمراد من العبادة في هذه الآية، العبادة بمعناها العام والشامل؛ وهو كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وفي الحديث، عن عدي بن حاتم الطائي، قال: "أتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ وفي عنقي صليبٌ من ذَهبٍ. فقالَ: يا عديُّ اطرح عنْكَ هذا الوثَنَ، وسمعتُهُ يقرأُ في سورةِ براءةٌ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّهِ﴾، قالَ أما إنَّهم لم

يَكونوا يعبدونَهم ــ أي من جهة الركوع والسجود ــ ولَكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لَهم شيئًا استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليْهم شيئًا حرَّموه". وفي رواية: "فتلك عبادتُهم".[17].

وسُئِلَ حُذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ عن هذه الآية:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ أكانُوا يُصلُّون لهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا يُحلُّون لهم ما حرَّم اللهُ عليهم فيستحلُّونه، ويُحرِّمون عليهم ما أحلَّ اللهُ لهم فيُحرِّمونَه فصاروا بذلك أرباباً[18]. هكذا كانوا من قبل يعبدون أحبارهم ورهبانهم وقساوستهم من دون الله من جهة طاعتهم في التحليل والتحريم بغير سلطان من الله تعالى .. أما اليوم فقد اتسع خرق الشرك عليهم؛ فلم تقتصر عبادتهم لأحبارهم ورهبانهم وقساوستهم، على طاعتهم ومتابعتهم في التحليل والتحريم بغير سلطان من الله .. بل هم إضافة إلى ذلك فقد عبدوهم من جهة التبرّك، والركوع، والسجود، والخضوع، واعتبارهم واسطة بينهم وبين الله، لا تقبل توبة العبد إلا من خلالهم وعن طريقهم .. فاستملكوا مفاتيح الرحمة، والجنة، والنار .. كما عبدوا الصلبان، والأصنام والتصاوير بالركوع والسجود، والدعاء، ونصبوها في كنائسهم، وزعموا زوراً وكذباً أنها تمثل صورتي المسيح وأمه مريم عليهما السلام .. وشركهم في اتساع، لن يقف عند حد، فالشيطان في كل فترة يبدع لهم إلهاً جديداً، يعبدونه ويتبركون به من دون الله!

---

17 صحيح سنن الترمذي: 3095.

18 السلسلة الصحيحة:7/ 865.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مريم: 88-93.

وقال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾؛ ويعتريهما ما يعتري البشر من الحاجة إلى الطعام، والحاجة إلى إخراجه، فكيف وهما بهذه الحاجة يليق بكم يا أيها النصارى أن تتخذوهما إلهين من دون الله؟! ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾؛ البينات، والبراهين الساطعات، الدالة على بطلان الشرك، وبطلان أن يكون لله تعالى ولد، ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ المائدة: 75. يُصرفون ويَعدلون عن الحق إلى الباطل، وعن التوحيد إلى الشرك!

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ المؤمنون: 91. وهذا برهان آخر على بطلان دعوى أن يكون لله ولد أو معه إله؛ إذ لو كان معه إله وشريك، قادر على الخلق والإيجاد من عَدَم، ويتمتع بخصائص الإلهية كما يدّعون، لانفرد بما خلق، واستأثر به لنفسه، ولحرص على مغالبة الإله الآخر، وأخذ ما بيده .. ولو كان ذلك موجوداً، لزمه فساد الكون واضطرابه وخرابه، فصراع الآلهة وتنافسهم ليس كصراع البشر أو المخلوقين .. أما وأنه لا يوجد شيء من ذلك، وحركة الكون

والمجرّات، والنجوم، والكواكب وما فيها من مخلوقات، في قمة الانضباط والنظام، والتَّحَكُّم .. دل على أن لهذا الكون إله واحد، ورب واحد لا شريك له.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ البقرة:116. وقال تعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا﴾؛ أي هل لديكم دليل وعلم من الله في هذا الذي تدعونه من أن لله تعالى ولد .. فكيف تتجرؤون أن تقولوا على الله تعالى وتنسبوا له شيئاً بغير عِلم، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يونس:68. وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأنعام:101. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ الإسراء:111. أي ليس له ولي من خلقه بسبب الضعف، أو الحاجة إليه، يعزز به ملكه وقوته، ويكمل به نقصه .. لا؛ سبحانه، بل هو القوي، الغني، العزيز، المتين، له العزة جميعاً ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾؛ أي وعظمه ومجده، وبجله، ونزهه عن صفات النقص والمخلوقين، واثن عليه بما هو أهله من التعظيم والتنزيه، وبما له من الأسماء الحسنى، والصفات العليا .. ولذلك قال تعالى في أول الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾؛ فمن أعظم النعم وأجلها التي تستحق الحمد والشكر لله عز وجل أنه تعالى واحد أحد، ليس له ولد، ولا شريك في الملك والحكم .. وإلا لاضطرب الكون، وفقدنا الاستقرار والعيش الآمن على الأرض .. ولتنازعتنا الآلهة فيما بينهم، وذهب كل إله بقسمته وحصته منا!

وقال تعالى في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ﴾ الإخلاص:1-4.

﴿قُلْ﴾؛ باللسان والقلب، قولاً جازماً، معتقداً به، ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾؛ أحَدٌ في ذاته، وأحَدٌ في أفعالِه، وأحَدٌ في أسمائه الحسنى، وصفاته العُليا، المنفرد بالألوهية والربوبية، وبصفات الكمال والجمال والجلال، دون سائر خلقه، لا شريك له، ولا مثيل ولا نظير له في شيء من خصائصه وصفاته سُبحانه، ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾؛ السيّد الذي تتوجه إليه جميع مخلوقاته بحاجياتها إليه، فجميع المخلوقات السماوية منها والأرضية، فقيرة إليه، لا قيام، ولا حركة، ولا وجود، ولا حول، ولا قوة لها إلا به، وهو الغني عنها، ومن كمال غناه وقيوميّته سبحانه وتعالى أنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لم يأتِ منه ولَد؛ فيكون هذا الولد بعد أن لم يكن ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ ولم يأتِ من والدٍ سابق؛ فكان بعد أن لم يكن، فالوالد والولد مُحْدَثَان، لهما ابتداء، ومن كان لهما ابتداء لهما انتهاء، يموتان، ويرث أحدهما الآخر، وهذا محال بحق الله تعالى، ولو جاز القول بأن لله والد، لورد السؤال عن والد الوالد، وعن والد والد الوالد، وإلى ما لا نهاية، وهذا مقطوع ممنوع، بالنقل والعقل سواء، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ﴾؛ أي لم يكن له في الوجود كل الوجود، مُكافِئ يُكافئه، ويُماثله في شيء من أسمائه، وأفعاله، وصفاته، وخصائصه .. سبحانه وتعالى.

ومن عظمة وبركة وفوائد سورة الإخلاص، على قِصرها وقِلة آياتها، إلا أنها تعدل من حيث الأجر والثواب قراءة ثلث القرآن الكريم، لما تتضمنه من معاني التنزيه، والتعظيم، والتوحيد، كما في صحيح مسلم: "إنَّ اللهَّ جَزَّأَ القُرْآنَ ثَلاثَةَ

أجْزاءٍ، فَجَعَلَ قُلْ هو اللهُ أحَدٌ جُزْءًا مِن أجْزاءِ القُرْآنِ". وقال صلى الله عليه وسلم: "أيَعْجِزُ أحَدُكُمْ أنْ يَقْرَأَ في لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قالوا: وكيفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قالَ: قُلْ هو اللهُ أحَد؛ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ " مسلم.

ومن حسناتها أنها إذا قُرئت مع المعوذتين في الصباح ثلاث مرات كفت صاحبها من كل شَرٍّ، حتى يمسي، فإذا قرأها في المساء ثلاث مرات كفته حتى الصباح، كما في الحديث: "قُلْ هو اللهُ أحَد، والمعوذتينِ حين تُمسي، وحين تُصبحُ، ثلاثَ مرات، تكفيك من كلِّ شيءٍ" [19].

وقال صلى الله عليه وسلم: "من قرأ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ عشرَ مراتٍ بنى اللهُ له بيتًا في الجنَّةِ" [20].

ومن الآيات الدالة كذلك على براءة المسيح عليه السلام من الشرك، ومن نسبة الولد، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ النحل:36. هذه الآية الكريمة دلَّت على أن المهمة الأساس لجميع الأنبياء والرسل من لدن نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، والغاية من إرسالهم، هي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى اجتناب الشرك وعبادة الطاغوت، وهو الشيطان، وكل ما عُبد من دون الله تعالى وهو راضٍ بعبادة الآخرين له، والمسيح عليه السلام من هؤلاء الرسل الذين بعثهم الله، وقامت دعوتهم على توحيد الله تعالى، واجتناب الطاغوت، وعبادته.

---

19 أخرجه أبو داود، وغيره، صحيح الجامع: 4406.

20 أخرجه أحمد، وغيره، صحيح الجامع: 6472.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء:25. وعيسى عليه السلام من هؤلاء الرسل. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الشورى:13. هذه الآية الكريمة خصت بالذكر ألو العزم من الرسل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم أفضل الصلاة والسلام، فجميعهم دينهم واحد؛ أن اعبدوا الله تعالى وحده، واجتنبوا الشرك، وعبادة ما سواه، وجميعهم يصدرون من مشاكاة واحدة؛ مشكاة الوحي من رب العالمين، وإن اختلفوا في بعض الأحكام والشرائع العملية، والفرعية، بما يتناسب مع زمان كل نبي، إلا أن العقيدة كانت واحدة.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ كل الأنبياء والرسل من قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بمن فيهم عيسى عليه السلام، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر:65. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام:88. فالشرك يحبط العمل، ويحرم صاحبه يوم القيامة من الانتفاع من عمله الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾ الفرقان:23.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾؛ علماء عاملين صادقين،

تربون الناس على الإيمان والتوحيد الخالص ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ آل عمران: 79.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا كان يومُ القيامةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتْبَعْ كلُّ أمةٍ ما كانت تَعبُدُ، فلا يَبْقَى أحدٌ، كان يعبدُ غيرَ اللهِ سبحانه من الأصنامِ والأنصابِ، إلا يَتَساقَطُونَ في النارِ، حتى إذا لم يَبْقَ إلا من كان يعبدُ اللهَ من بَرٍّ وفاجِرٍ، وغُبَّرِ أهلِ الكتابِ ــ أي بقايا أهل الكتاب ـ فيُدْعَى اليهودُ فيُقالُ لهم: ما كنتم تعبدونَ؟ قالوا: كنا نعبدُ عُزَيْرَ بنَ اللهِ. فيُقالُ: كذبتم؛ ما اتخذ اللهُ من صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنَا يا ربَّنا فاسْقِنا، فيُشارُ إليهم: أَلَا تَرِدُونَ ؟ فيُحشَرونَ إلى النارِ كأنها سَرابٌ يَحْطِمُ بعضُها بعضًا، فيَتَساقطونَ في النارِ. ثم يُدْعَى النصارى، فيُقالُ لهم: ما كنتم تَعبدونَ؟ قالوا: كنا نَعْبُدُ المَسيحَ بنَ اللهِ، فيُقالُ لهم: كَذَبتم؛ ما اتخذ اللهُ من صاحبةٍ ولا ولدٍ. فيُقالُ لهم: ماذا تَبْغُونَ؟ فيقولون: عَطِشْنا يا ربَّنا فاسْقِنا، قال فيُشارُ إليهم: أَلَا تَرِدُونَ؟ فيُحشَرونَ إلى جهنمَ كأنها سَرابٌ يَحْطِمُ بعضُها بعضاً فيَتَساقطُون في النارِ " متفق عليه. وقوله " يَحْطِمُ بعضُها بعضاً"؛ أي يكسر بعضهم بعضاً.

ومن حديث النجاشي الطويل، الذي روته أم سَلمة رضي الله عنها، أن النجاشي قال لمن هاجر إليه من الصحابة: ما تَقولون في عيسى ابنِ مريمَ؟ فقال له جعفرُ بنُ أبي طالبٍ: نَقولُ فيه الَّذي جاءَ به نبيُّنا؛ هو عبْدُ اللهِ ورسولُه، ورُوحُه،

وكَلِمتُه أَلْقاها إلى مريمَ العَذراءِ البَتولِ. قالتْ: فضَرَبَ النَّجاشيُّ يدَه إلى الأرضِ، فأَخَذ منها عُودًا، ثمَّ قال: ما عَدَا عيسى ابنُ مريمَ ما قُلْتَ هذا العُودَ" [21].

وفي رواية، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال عَمرو بن العاص، فإنهم يخالفونك في عيسى بنِ مريمَ! قال النجاشي: فما تقولون في عيسى ابنِ مريمَ وأمِّه؟ قال جعفر بن أبي طالب: نقول كما قال اللهُ هو كلمتُه ورُوحُه ألقاها إلى العذراءِ البَتولِ التي لم يمَسَّها بشرٌ، ولم يَفرِضْها ولَدٌ ــ أي بقيت عَذراء ــ قال: فرفع عوداً من الأرضِ، ثم قال: يا معشرَ الحبشةِ والقِسِّيسينَ والرهبانِ، واللهِ ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتُم من عنده، أشهدُ أنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنه الذي نجدُ في الإنجيلِ، وأنه الرسولُ الذي بشَّر به عيسى بنُ مريمَ، انزلوا حيث شئتُم، واللهِ لولا ما أنا فيه من المُلكِ لأتيتُه حتى أكون أنا الذي أحملُ نعلَيه" [22].

وقال صلى الله عليه وسلم: "من قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسَى عبدُ اللهِ ورسوله، وابنُ أمتِه، وكلِمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأنَّ الجنَّةَ حقٌّ، وأنَّ النَّارَ حقٌّ، أدخله اللهُ من أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثَّمانيةِ شاء " متفق عليه. وفي روايةٍ عند البخاري: "أدخله اللهُ الجنةَ على ما كان من العملِ". ما لم يكن هذا العمل شركاً يناقض شهادته، فإن الله تعالى لا يغفر لمن يموت على الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

[21] أخرجه أحمد وغيره، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

[22] قال ابن كثير في البداية والنهاية 3/ 67: إسناده جيد قوي.

اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ النساء:48.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تُطْروني، كما أطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه" البخاري. أي لا تُغالوا في مدحي ووصفي فترفعوني إلى مقام فوق مقام " عبد الله ورسوله"، كما فعلت النصارى عندما غلوا في المسيح ابن مريم عليه السلام، فرفعوه إلى مقام الألوهية والربوبية .. يحذر أمته من أن تفعل معه ما فعلت النصارى مع نبي الله المسيح عليه السلام .. وأمرنا بأن نقول: "عبدُ الله ورسوله". فالإساءة إلى أنبياء الله ورسله تكون من وجهين: الجفاء، والتفريط، والانتقاص من قَدْرِهم ومن مكانتهم الرفيعة التي منحهم اللهُ إيَّاها، ثانياً؛ من جهة الغلو في أشخاصهم، ورفعهم إلى مقام الألوهية والربوبية، وإلى مقام أعلى من مقام " عبد الله ورسوله"، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ لكن الذي يفرقني عنكم أنني رسول الله ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ الكهف:110. والعمل الصالح هو كل ما وافق الكتاب والسُّنة، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾؛ الإخلاص؛ أن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى، وهو شرط لقبول العمل.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ أمر يحيى بنَ زكريا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بهنَّ، وأن يأمرَ بني اسرائيلَ أن يعملوا بهنَّ، فكأنه أبطأَ بهنَّ، فأوحى اللهُ إلى عيسى: إما أن يُبلِّغَهنَّ أو تبَلِّغْهنَّ، فأتاه عيسى، فقال له: إنك أُمِرتَ بخمس كلماتٍ

أن تعملَ بهن، وتأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بهن، فإمَّا أن تُبَلِّغَهنَّ وإما أن أُبلِّغَهنَّ؟ فقال له: يا رُوحَ اللهِ، إني أَخشى إن سبقْتَني أن أُعَذَّبَ أو يُخسَفَ بي، فجمع يحيى بني إسرائيلَ في بيتِ المقدسِ حتى امتلأ المسجدُ، فقعد على الشُّرُفاتِ، فحمد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ اللهَ أمرني بخمسِ كلماتٍ أن أعملَ بهنَّ وآمركُم أن تعملوا بهنَّ، وأولهنَّ: أن تعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئاً، فإنَّ مثلَ من أشرك باللهِ كمثَلِ رجلٍ اشترى عبداً من خالصِ مالِه بذهبٍ أو ورِقٍ، ثم أسكنه داراً، فقال: اعملْ وارْفَعْ إليَّ، فجعل العبدُ يعمل ويرفعُ إلى غير سيِّدِه، فأيُّكم يرضى أن يكون عبدُه كذلك؟ وإنَّ اللهَ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ..."[23].

ـــ براءة المسيح عليه السلام من فِرية الصّلب والقتل.

ومن الافتراءات التي يفترونها على عيسى عليه السلام، أنه صُلِب، وقُتِل .. فاليهود يقولون صلبناه وقتلناه لأنه كافر كذاب، والنصارى قد صدقوهم وتابعوهم على قولهم في قضية الصلب والقتل، واختلفوا معهم في السبب، والعلة، فقالوا: صُلب وقُتل كفارة لخطيئة آدم، وليفتدي خطايا البشرية، وبعضهم قيد فقال: ليفتدي من آمن به، وآمن بالفداء، ولكي يخلصهم من ذنوبهم، وآثارها وتبعاتها، وهو بذلك يكون المخلّص الذي يتحمل خطاياهم بالنيابة عنهم، وقالوا: "من أجل خلاصنا نزل، وتجسّد وتألّم، ومات .. الراعي الصّالح يبذل نفسه عن الخراف .. لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يُهلِك كل من

[23] صحيح الجامع: 1724.

يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية .. بهذا أظهرت المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا .. مات من أجل خطايانا .. أسلم نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة طيبة"، وهذا باطل مردود عليه بالنقل والعقل، لم يحصل منه شيء، وعيسى عليه السلام بريء من فرية الصلب والقتل، ومن خرافة عقيدة الفداء والخلاص، براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ النساء:157-158. ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾، هذا قول اليهود، وهم بقولهم هذا، وإن لم يكونوا قد قتلوه على الحقيقة، فإنهم يطالهم حكم ووزر القتل، لأنهم بيتوا قتله، وحاولوا قتله، وبذلوا قصارى جهدهم لقتله، ورضوا بأن يُقتل؛ والرضى بالشيء كفاعله، فباؤوا بالوزر مع الفشل، وعدم بلوغ مرادهم، فأبطل الله كيدهم ومكرهم، ﴿رَسُولَ اللهِ﴾؛ أي المسيح عليه السلام هو رسولُ الله، وأنَّى لهم أن يَقتلوا رسولَ الله؟! فقد جرت سنة الله تعالى في رسله أن لا يُقتَل أحدٌ منهم على يد أعدائه من الكفَّار والمشركين، فقد عصمهم الله من ذلك، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾؛ لكن في الحقيقة لم يقتلوه كما يدعون، ولم يتمكنوا من قتله رغم محاولتهم قتله، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾؛ وما علقوه على الصليب، ﴿وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ ولكن هذا الذي قتلوه وصلبوه هو شخص آخر غير عيسى عليه السلام، جعل الله صورته تشبه صورة المسيح عليه السلام، فظنوه المسيح عليه السلام، ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ

عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾؛ ليس لهم علم يفيد اليقين أن هذا الذي قتلوه وصلبوه هو المسيح عليه السلام، بل هم في ظن وشكٍّ منه؛ هل هو أم لا، والظن لا يغني من الحق شيئاً، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾؛ متيقنين لقتله، بل اليقين القاطع للظن والشك أنهم لم يقتلوه، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾؛ بل الحقيقة التي خفيت عليهم، أن الله تعالى قد أبطل كيدهم، وأعمى أبصارهم عنه؛ فرفعه إليه في السماء، ولم يمكنهم من الظفر به، ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أي قابضك من الأرض حيَّاً بجسدك وروحك من غير موتٍ ولا نومٍ، وقيل ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ وفاة صغرى؛ وفاة نوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ الأنعام:60. وقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ الزمر:42. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾؛ أي رافعك إلى السماء بروحك وبدنك،﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي ومخلصك من الذين كفروا، وكذبوك، ومن شرهم وأذاهم، برفعك حيَّاً إلى السماء، ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ آل عمران:55.

والراجح أن عيسى عليه السلام، لما رُفِع إلى السماء، كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، كما في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: "قولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿حتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ الأحقاف:15. قال ثلاثَةٌ وَثَلَاثُونَ، وهو الَّذِي رُفِعَ عليه

عيسى بنُ مريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم"[24]. ولعل مما يعضد هذا المعنى الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "يدخلُ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ على طولِ آدمَ ستينَ ذراعًا بذراعِ الملَكِ، على حُسنِ يُوسفَ، وعلى مِيلادِ عيسى؛ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً، وعلى لسانِ محمدٍ، جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُونَ"[25]. وفي رواية عند البخاري ومسلم: "طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا"، ولم يذكر "بذراع الملَك"، وهذا يشمل جميع من يدخل الجنة، بما في ذلك من ماتوا أطفالاً، أو بالسَّقْطِ، أو مات وهو شيخ فانٍ، والله تعالى أعلم.

فائدة: لم يُعرَف في تاريخ جميع الرسل ــ وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، رغم الأذى الشديد الذي تعرضوا له من أقوامهم ــ أن رسولاً واحداً قد قُتِل على يد أعدائه من الكفار والمشركين، بخلاف الأنبياء، فإن منهم من قُتِل على يد أعدائه من الكفار والمشركين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِّ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة:91. ولم يقل رسل الله، والفرق بين الرسول والنبي، أن كل رسول نبي، ولا يلزم أن يكون كل نبي رسولاً، والرسول من يُبعَث بشرع جديد، ورسالة

---

[24] قال الهيثمي في مجمع الزوائد 7/ 109: فيه صدقة بن يزيد وثقه أبو زرعة وأبو حاتم، وضعفه أحمد وجماعة، وبقية رجاله ثقات.

[25] أحرجه ابن أبي الدنيا، في صفة الجنة:210. السلسلة الصحيحة:6/ 46. وقوله " وعلى لسانِ محمدٍ " صلى الله عليه وسلم؛ أي يتكلمون العربية، وقوله: "جُرْدٌ"؛ أي تخلوا أجسادهم من الشعر، " مُرْدٌ"؛ وهو الشاب الذي نبت شاربه، ولم تنبت لحيته.

جديدة، تستدعي بلاغاً جديداً، والنبي مَن يُؤمَر بمتابعة شرع وكتاب رسول زمانه، أو من تقدمه من الرسل، ولعل الحكمة من ذلك أن الرسول مطالب بأن يبلغ كامل الرسالة، وكامل الشرائع، والمهام الموحية إليه من ربه، ولو قُتِل لبقيت الرسالة ناقصة، والشرائع خفيَّة، ولا يوجد من يكملها بالنيابة عنه، بخلاف النبي؛ فلو قُتِل فإن قتله لا يُحدث مثل هذا الفراغ، ولعل مما يدل على هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة:67. وكان صلى الله عليه وسلم يُحرَس، فلمَّا نزَلت هذه الآية، قال: "يا أيُّها النَّاسُ، انصَرِفوا فقد عَصمَني اللهُ" [26]، فقُيدَت العصمة لضرورة البلاغ والبيان، والله تعالى أعلم.

تنبيه: هناك آثار عديدة عن هوية هذا الذي شُبه لهم، هل هو الشاب من الحواريين ممن كانوا مع المسيح عليه السلام في البيت؛ فتطوع أن يكون شَبَه عيسى عليه السلام ليفديه بنفسه، فيُقتَلُ مكانه، مقابل أن يكون معه في الجنة في درَجته، أم هو الذي وشى على مكانه، وأراد أن يدلهم عليه، فعاقبه الله من جنس فعله، فقلب صورته إلى صورة عيسى عليه السلام، فأخِذ بذنبه، أم هو من أعدائه، ممن كانوا يتعقبونه ويحرسون البيت الذي كان فيه، وغيرها من الروايات .. وليس منها رواية مرفوعة للنبي صلى الله عليه وسلم، بسندٍ صحيح، وبعضها من الإسرائيليات، لذا فقد أعرضنا عن ذكرها، واكتفينا بما ورد في القرآن الكريم، ودلت عليه الآيات،

---

[26] أخرجه الترمذي وغيره، صحيح سنن الترمذي: 3096.

وبخاصة أن معرفة هوية هذا الذي شُبه لهم، لا تؤثر على موضوع القصة، والغاية منها، وهي أن عيسى عليه السلام لم يُقتَل، ولم يُصلَب.

ــ خرافة عقيدة الفِداء والخَلاص.

عقيدة الفِداء والخَلاص، عقيدة باطلة فاسدة، مُدمِّرة للأخلاق، وقيم الخير والإيمان، وبيان ذلك من أوجه:

منها: أن عقيدة الفداء والخلاص، تبطل الغاية والحكمة من إرسال الأنبياء والرسل قبل عيسى عليه السلام، فإذا كان عيسى عليه السلام يخلّص الناس من خطاياهم وذنوبهم، وقد فداهم، وطهرهم من الخطايا بنفسه، فلماذا أرسل الله تعالى قبله من الأنبياء والرسل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وغيرهم، وما الحكمة من أو الفائدة من إرسالهم؟!

ومنها: إذا كانت قصة " الفداء والخلاص " حق، وهي قضية الوجود كله، وتخص كل إنسان في هذا الوجود ــ كما يزعمون ــ، وهي بهذا الحجم الضخم الذي يطرحه النصارى .. فعلام لم يُشِر إليها نبي واحد من أنبياء الله؛ ممن أرسلوا قبل عيسى عليه السلام .. وعلامَ علَّق جميع الأنبياء والرسل الوعد والوعيد، على ما يصدر من الناس من أعمال وأقوال، وليس على إيمانهم بالمخلّص، وبقصة الفداء والخلاص، كما يرويها النصارى ..؟!

ومنها: أن عقيدة الفداء والخلاص، تبطل الغاية من الوجود، ومن خلق الخلق، ومن وجود الإنسان في هذه الحياة، ألا وهي عبادة الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:56. وقال تعالى: ﴿وَمَا

أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ البينة:5. بينما عقيدة الفداء والخلاص، تقول أن الله تعالى قد خلق الناس ليخطئوا ويرتكبوا الخطايا، ليطهرهم من خطاياهم وذنوبهم، بقتل نفسه أو ابنه الوحيد، وتعريضه للصلب والتعذيب، ليعبث بجسده الكفار، العابثون الشامتون .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

ومنها: أن عقيدة الفداء والخلاص، تبطل أعظم قانون من قوانين العدالة، الذي أقرته شرائع السماء قبل أن تهتدي إليه شرائع الأرض، وهو أن البريء لا يُؤخذ بذنب وجريرة المذنب المخطئ، وأن المرء لا يتحمل وزر غيره، ولا يؤخذ بوزر غيره، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدّثر:38. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام:164. وقال تعالى: ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الإسراء:15. وهذه آية قد تكررت في القرآن الكريم خمس مرات، وفي مواضع مختلفة، لبيان أهمية هذا القانون العظيم، وبيان أن العدالة كلها تقوم عليه.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يؤخَذُ الرَّجلُ بجريرةِ أبيهِ، ولا بجَريرَةِ أخيهِ" [27]. وقد جاء الصحابي أبو رَمثةَ رِفاعة بن يَثرِبيٍّ ومعه ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ابنُك هذا؟ فقلتُ: نعم، أشهدُ به، قال: لا يَجْني عليك، ولا تَجْني عليه"

[27] أخرجه النسائي وغيره، صحيح سنن النسائي: 4138.

[28]. وإذا كان المرء لا يجوز بالنقل والعقل أن يُؤخذ بجريرة غيره، فكيف نجيز ذلك على الله تعالى أن يأخذ نفسه أو ابنه الوحيد بالصلب، والتعذيب، والقتل، وصنوف الإهانات، بجريرة خطايا الناس .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟!

ومنها: أن عقيدة الفداء والخلاص، مؤداها إلى فشو الجرائم، والتحلل، والإباحية، والفساد، وارتكاب جميع الموبقات .. ولمَ لا؛ والمسيح بزعمهم جاء وصلب، وقُتِل، وعرَّض نفسه لصنوفٍ من العذاب والإهانات، ليفديهم، ويخلصهم من ذنوبهم وتبعاتها .. وما دام الأمر كذلك، فعلامَ القلق من ارتكاب الذنوب والخطايا، والتمادي فيها كمّاً ونوعاً .. افعل ما شئت من المنكرات، والخطايا، لا عليك؛ فالمخلص قد فداك بنفسه، وهو كفيل بتخليصك منها .. ولعل هذا ما يفسر فشو الفساد والتحلّل، والإباحية الموجودة في بلاد الغرب، وغيرها، وما وصلت إليه الكنيسة المعاصرة من التَّحلل والفساد، والشذوذ، إلى درجة أنها شرّعت وأباحت لأتباعها اللواطة، والزواج المثلي، وغير ذلك من الموبقات .. ومن دون أن يعتريهم أدنى قلق أو حرج، أو خوف من الله .. إذ يكفي إيمانهم بالمخلص، وبخلاصه لهم من الخطايا، وبطريقة خلاصه لهم .. قد أصابتهم دعوة الأنبياء، لسوء صنيعهم هذا، كما في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ لماذا، وما هو السبب ؟﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

---

28 مختصر الشمائل، 37، قال الألباني: صحيح. وقال ابن العربي في عارضة الأحوزي 5/ 23: صحيح ثابت.

المائدة:78-79. وهم ــ على أعلى المستويات ــ لا يزالون يتواطؤون على مزيد من المنكرات، والفواحش، والتقنين والتشريع لها!

ومنها: أن عقيدة الفداء والخلاص تقتل في الإنسان الرغبة، والهمة، والإرادة في فعل الخير ابتغاء مرضاة الله .. فعلام يَعبد اللهَ .. وعلام يَفعل الخير .. وعلام يتصدّق، ويبذل معروفه للناس .. ويعمل صالحاً .. إذا كان إيمانه بالمخلّص، سيخلّصه من تبعات التقصير في جميع ما تقدم ذكره .. حتى أصبحت مقولة " في سبيل الله، ومن أجل الله " من المقولات المستهجنة المستقبحة في بيئتهم، وثقافتهم! كما قال تعالى عنهم:﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾الزمر:45.

فعقيدةُ الفداء والخلاص من شأنها أن توجد مجتمعات مادية، تقوم على الأنانية، والحرص، والشح .. وعدم الاكتراث بالآخرين وبأحوالهم، ومشاعرهم!

كما من شأنها أن تورث معتقديها التواكل، وترك العمل، والجَّفاء، والغفلة، وقساوة في القلب .. والركون على المخلِّص، وقصة الفداء والخلاص .. والله تعالى خلقنا لنكون قريبين منه، مطيعين ومحبين له، نتقرب إليه بما يحب من الأعمال والطاعات الظاهرة والباطنة ـ والتي فيها خيرنا في الدنيا والآخرة ـ لا لكي نجافيه!

بسبب عقيدة الفداء والخلاص .. كثير من أبناء النصارى في بلاد الغرب وغيرها، جنحوا إلى الإلحاد .. والقلة القليلة منهم يربطهم بالدين، مجرد زيارة الكنيسة يوم الأحد أو في الشهر مرة واحدة؛ لسماع بعض الترانيم والمعازف الموسيقية .. هذا كل حظهم من الدين، وحظ الدين منهم!

وكثير من كنائسهم يمر عليها شهور، ولا يدخلها أحد .. فيستأجرها المسلمون منهم ليقيموا فيها صلاة الجمعة، حيث أن المساجد لم تعد تسع لعدد المصلين من المسلمين، فيضطرون لاستئجار كنائسهم الخاوية!

ومنها: أن عقيدة الفداء والخلاص مفادها أن الله تعالى شحيح في التوبة، يده مغلولة عن التوبة على عباده، لا يقدر أن يتوب عليهم إلا بعد أن يقتل ويصلب نفسه، أو ابنه الوحيد كما يدعون .. فمن قبل قال اليهود ظلماً وكفراً وبغياً، يد الله مغلولة عن العطاء، فأجابهم الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِّ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ المائدة:64. ومن بعدهم قال النصارى من خلال عقيدة الفداء والخلاص، يد الله مغلولة عن التوبة على عباده، وهو لكي يتوب عليهم، ويقبل منهم التوبة، يحتاج إلى أن يقتل ويصلب، ويعذب نفسه أو ابنه الوحيد .. وهذا سوء ظن بالله .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟!

فالتوبة أيسر من ذلك بكثير، فهي لا تحتاج لشيء من ذلك، أبوابها مُشرَعةٌ معروضة للجميع، وعلى مدار الوقت .. وفي أي مكان يكون فيه العبد .. لا يوجد بين التائب وربه حاجباً، أو واسطة، ولا حاجزاً مانعاً .. والله تعالى يحب عبده التائب، ويفرح لتوبته فرحاً شديداً .. وهو سبحانه أشد إقبالاً على عبده التائب، من إقبال العبد على ربه .. ويغفر له ويتوب عليه، مهما كانت ذنوبه وخطاياه كثيرة وكبيرة .. فالله تعالى لا يعجزه شيء .. وهو لا يريد من عبده سوى أن يناجيه، فيقول بقلب حاضر صادق: يا الله .. والله معه، يسمع ويرى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد:4. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق:16. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة:186. فأنت لا تحتاج لأن ترفع صوتك في الدعاء لكي يسمعك الله، بل حتى لو كان دعاؤك في نفسك، لا تحرك به شفتيك .. فالله تعالى يعلمه، ويسمعه، ويقول لك: أجبتك عبدي ...!

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التوبة:104. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الشورى:25. وقال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّهِ مَتَاباً﴾ الفرقان:71. أي يرجع ويؤوب إلى الله رجوعاً حميداً، فيجازيه الله خيراً ومغفرة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ البقرة:222. ومن عظيم كرم الله تعالى، وعظيم عطائه وتوبته على عباده، أن من يتوب ويُسلِم ويحسن إسلامه، ليس فقط يقبل الله توبته، ويغفر له، ويمحو جميع خطاياه، ويعود طاهراً من الذنوب كما ولدته أمه، بل مع ذلك يبدل سيئاته التي اقترفها في جاهليته قبل الإسلام إلى حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ الفرقان:70. فأي ترغيب يعدل هذا الترغيب في التوبة والأوبة إلى الله تعالى، واستئناف عمل صالحٍ جديد.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الإسلامُ يَجُبُّ ما كان قبلَهُ" [29]. أي يمحو ما كان قبله من الخطايا والذنوب. وقال صلى الله عليه وسلم: "التائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ لهُ" [30].

ولما أراد عمرو بن العاص، أن يُسلم، اشترط لنفسه أن يغفر الله له ذنوبه التي كانت منه في الجاهلية قبل الإسلام، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أما عَلِمْتَ أنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ، وأنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِن رَجُلٍ في أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ ــ أي صحراء قاحلة مهلكة لا حياة ولا نبات فيها ــ معهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حتَّى أَدْرَكَهُ العَطَشُ، ثُمَّ قالَ: أَرْجِعُ إلى مَكَانِيَ الذي كُنْتُ فِيهِ، فأَنَامُ حتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ علَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِن هذا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ " مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَّ يُمْهِلُ حتَّى إذا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأوَّلُ، نَزَلَ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، فيَقولُ: هلْ مِن مُسْتَغْفِرٍ؟ هلْ مِن تائِبٍ؟ هلْ مِن سائِلٍ؟ هلْ مِن داعٍ؟ حتَّى يَنْفَجِرَ الفَجْرُ" مسلم. تأمل يا عبد الله كم الله يكرمك ويُقبل عليك، ويتودَّدُ إليك، ويخصك ويعنيك بندائه الخالد، إذْ ما من ليلة، وبعد أن يمضي الثلث الأول منها، إلا وينزل الرب سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا،

---

[29] صحيح الجامع: 2777.

[30] أخرجه ابن ماجه، وغيره، صحيح ابن ماجة: 3446.

نزولاً يليق بجلاله وجماله، يناديك، ويستنهضك للتوبة، والدعاء، ويسألك إن كنت تريد أن تستغفر ليغفر لك، أو تتوب ليتوب عليك .. يفعل ذلك في كل ليلة إلى أن يطلع الفجر، وهو المِلِك الغني عن الخلق أجمعين، يفعل ذلك ترغيباً وتشويقاً لك ــ يا عبد الله ــ لكي تتوب، وترجع إليه .. وهذا يشمل الذكور والإناث سواء.

الله تعالى قادر على أن ينادي عباده هذا النداء الخالد الودود، الرحيم، الرفيق، وهو فوق عرشه سبحانه، ولكنه يأبى إلا أن ينزل إلى السماء الدنيا، نزولاً يليق بجلاله من دون تكييف أو تمثيل، ليشعرهم بقربه منهم، وبإقباله عليهم، ترغيباً لهم في التوبة، والاستغفار، والدعاء.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا تَقَرَّبَ عَبْدِي مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ منه ذِراعًا، وإذا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ منه باعًا، وإذا أتانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" مسلم. أوبعد كل هذا الرفق، والرحمة، والإقبال، والتودد .. يُقال أن الله تعالى لا يقبل التوبة من عباده إلا بعد أن يفديهم وخطاياهم بنفسه، أو بنفس ابنه الوحيد بالقتل، والصلب، والتعذيب؟!!

وفي الحديث القدسي: "قالَ اللهُ تبارَكَ وتعالى يا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفَرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ، ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ إنَّكَ لو أتيتَني بقرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشرِكُ بي شيئًا لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً" [31]. فالله تعالى

[31] أخرجه أحمد، والترمذي، صحيح سنن الترمذي: 3540.

من أسمائه الحسنى " الغفور الرحيم"، ومن مقتضى هذين الاسمين العظيمين، أن يُخطئ العباد، وأن يغفر لهم ويرحمهم، إذا ما استغفروه، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لهم".

فجهنم بعظمتها، وسعيرها، ولهيبها، وعذابها الأليم، يكفي لإطفائها وإبعادها عنك دمعة صادقة تزرف من عينك خشية من الله، وحبّاً لله، وشوقاً إليه، ورغبة في التوبة إليه .. فهي لا تحتاج إلى أن يقتل الله ابنه الوحيد، وبعذبه، ويهينه، ويشمّت به أعداءه ــ كما يَدَّعون! ــ لكي يتوب عليك، كما في الحديث: "عينان لا تمسَّهما النارُ أبَداً: عينٌ بكت من خشيةِ الله، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيلِ الله" [32]. وفي رواية: "عينانِ لا تريانِ النَّارَ: عينٌ بكت وجَلًا من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تَكلأُ في سبيلِ اللهِ" [33]. أي تحرس في سبيل الله. صدق الله العظيم: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ النساء:147.

كما أن هناك أعمال في اليوم والليلة تحط الخطايا وتُطفئ نارها؛ فما بين الصلاة والصلاة كفارة لما بينهما من الخطايا، والوضوء يُذهب لخطايا والذنوب، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، وصيام يوم عرفة؛ فإنه يكفر خطايا عام ماضٍ، وعام قادم، وكذلك الحج يجبّ ما قبله من الخطايا .. وغيرها كثير من الأعمال قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أنها

---

32 أخرجه أبو يعلي، والطبري، وغيرهما، صحيح الجامع: 4113.

33 صحيح الجامع: 4111.

تكفر الخطايا، وتُطفئ نارها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود:114. وقال صلى الله عليه وسلم: "أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمْحُها" [34].

ومنها: قالوا: بعد أن صُلِب المسيح عليه السلام، مات، وظل ميتاً ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك قام ورُفِع إلى السماء .. والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان المسيح هو الله، كما يقول أكثرهم، مَن كان يدير شؤون الكون وما فيه من مخلوقات، ويمسكه من الوقوع، والدمار في تلك الأيام التي مات فيها .. والناس مَن كانوا يعبدون في هذه الأيام، ومعبودهم ميت غافل عنهم، لا يعلم عنهم شيئاً .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟! قال تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ البقرة:355.

ومنها: لو تتبعنا كلمات النصارى في كتبهم عن الفداء والخلاص، لوجدنا تناقضات كثيرة .. غير التي ذكرناها أعلاه .. لا مجال لذكرها هنا، فليس من أغراض هذا الكتاب أن نتناول ونفند شذوذات وأخطاء وتناقضات النصارى الواردة في كتبهم المعتمدة .. فهذا له موضع آخر، والأبحاث والكتب التي كتبت في هذا المجال كثيرة، وهي متوافرة لمن يريدها.

---

34 أخرجه الترمذي، وأحمد، صحيح سنن الترمذي: 1987.

ـ الدعوة إلى المباهلة.

إن لم تجْدِ الآيات البينات نفعاً مع النصارى، وآثروا الجدال، والعمى على الهدى، والجحود والعناد، والتكذيب على الإيمان والتصديق .. بقي الخيار الأخير؛ وهو دعوتهم إلى المباهلة، والملاعنة، وأن يدعو كل فريق؛ فريق المسلمين، وفريق النصارى، أن لعنة الله على الكاذب منهما. كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران:60-61. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ هذا الذي نبأناك به يا محمد عن عيسى عليه السلام، هو الحق من ربك، الذي ليس بعده إلا الباطل والضلال، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، من الشاكين فيما أخبرناك به عن حقيقة عيسى عليه السلام، فالخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، وأريد به التعريض بالمخالفين، الذين قامت دعوتهم على الشك، والظن، ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ فمن جادلك بعد ما جاءك من العلم بشأن عيسى عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله، وقامت عليه الحُجّة، وأبى الانصياع للحق، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾؛ هلموا إن كنتم ترون أنفسكم على حق، ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾؛ وهذا أشد رهبة على الكذاب، من أن يُدعى للمباهلة بمفرده من دون نسائه وأبنائه، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾؛ ندعو الله تعالى ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ﴾، وعِقابه ﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾؛ سواء كانوا منَّا أو منكم.

ولما نزلت هذه الآية الكريمة، مباشرة؛ ومن دون أدنى تلكؤ أو تأخير، دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليّاً وفاطمةَ وحسَناً وحُسيناً، فقال: "اللهم هؤلاء أهلي" مسلم. ينتظر الفريق الآخر أن يأتوا بأهلهم للمباهلة والملاعنة .. وأنَّى أن يجرؤوا على فعل ذلك، وأمَامَهم رسول الله وآل بيته عليهم الصلاة والسَّلام؟!

هذه الآية نزلت في نصارى نجران؛ حيث عُرِفوا بكثرة جدالهم للنبي صلى الله عليه وسلم حول حقيقة عيسى ابن مريم عليهما السلام، أخرج البخاري في صحيحه، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: جاءَ العاقِبُ والسَّيِّدُ صاحِبا نَجْرانَ ــ اسم العاقب عبد المسيح، والسيد؛ الأيهم، إليهما تنتهي رئاسة نصارى نجران ــ إلى رَسولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدانِ أنْ يُلاعِناهُ، قالَ: فقالَ أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: لا تَفْعَلْ؛ فَواللهَّ لَئِنْ كانَ نَبِيًّا فَلاعَنَّا لا نُفْلِحُ نَحْنُ، ولا عَقِبُنا مِن بَعْدِنا، قالا: إنَّا نُعْطِيكَ ما سَأَلْتَنا ــ مال الجزية ــ وابْعَثْ معنا رَجُلًا أمِينًا، ولا تَبْعَثْ معنا إلَّا أمِينًا. فقالَ صلى الله عليه وسلم: "لَأَبْعَثَنَّ معكُمْ رَجُلًا أمِينًا حَقَّ أمِينٍ؛ قُمْ يا أبا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ، فَلَمَّا قامَ، قالَ رَسولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا أمِينُ هذِه الأُمَّةِ" متفق عليه. وهم أرادوا الرجل الأمين ليحكم لهم فيما اختلفوا فيه فيما بينهم بأمور تتعلق بأموالهم.

قال ابن كثير في التفسير: "قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: قَدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نَجْران، ستون راكباً، فيهم أربعة عَشرَ رجلاً من أشرافهم، يؤول أمرهم إلى ثلاثة منهم، وهم: العاقب، واسمه عبد المسيح، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا

عن رأيه، والسيد، وهو الأيْهَم، وكان عالمهم وصاحب رَحْلهم ومُجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة، وكان أسْقُفهم وحَبْرَهم وإمامهم وصاحب مدارسهم .. إلى أن قال: فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله، والفَصْلُ من القضاء بينه وبينهم، وأَمر بما أُمر به من ملاعنتهم إنْ رَدّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دَعْنَا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقِب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبدَ المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرَفْتم أن محمدًا لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفَصْل من خَبَر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعَن قوم نبيًا قط فبقي كبيرهم، ولا نَبتَ صَغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعُوا الرجلَ ــ أي صالحوه ــ وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجعَ على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا؛ فإنكم عندنا رضاً .."ا- هـ.

قال ابن عباس رضي الله عنه: "لو خرج الذين يُباهلون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، لرجَعوا لا يجدونَ مالًا ولا أهلاً" [35].

35 أخرجه أحمد، والنسائي، وغيرهما، السلسلة الصحيحة: 7/ 872. وقال ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب: 1/ 287: إسناده صحيح.

والدعوة إلى المباهلة والملاعنة مع باباوات وأساقفة النصارى، حول حقيقة المسيح ابن مريم عليهما السلام لم يُغلق بابها بعد، فهي معروضة عليهم إلى يوم القيامة إن أرادوا وأجمعوا على المباهلة .. وعلماء الإسلام لهم بالمرصاد؛ فهم ورثة الأنبياء، وهم على استعداد تام لهذه المباهلة إن أرادها الطرف المقابل، وسعى لها سعيها.

ـ الأعمال التي قام بها المسيح عليه السلام، قبل رفعه إلى السماء.

قام المسيحُ عليه السلام بجملة من الأعمال العظيمة، وأجرى الله على يديه عدداً من الآيات والمعجزات، قبل رفعه إلى السماء، أثبتتها له نصوص القرآن الكريم، والسنَّة النبوية المطهرة.

منها: دعوته إلى توحيدِ الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وإلى نبذِ الشّرك، وهو الغاية العظمى من مبعثة، ومبعث جميع الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المائدة:72. وقال تعالى عمّا قاله المسيح عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ آل عمران:51. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ النحل:36. وغيرها كثير من الآيات والأحاديث التي تدلل على هذا المعنى، قد تقدم ذكر بعضها، كما تقدمت الإشارة إلى هذه الغاية العظمى من مبعث عيسى عليه السلام، ومبعث جميع الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجميعين.

ومنها: نزول كتاب الله العظيم الإنجيل عليه، وتحليله لبعض ما حُرم على بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾؛ أي الكتابَةَ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ الفقه والسُّنن التي تُوحَى إليه غير الإنجيل، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ آل عمرا:48. وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ المائدة:110. وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ أي وأتبعنا من سبق من الرسل بعيسى عليه السلام، وكان آخر أنبياء بني إسرائيل، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ الحديد:27. كتاب الله تعالى العظيم، الذي أوحاه إليه، وخصَّه به. وقال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾؛ أي مقرراً ومثبتاً لما جاء في التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، وبخاصة التوحيد؛ أصل الأصول الذي أجمعت عليه جميع الرسالات السماوية، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ من الأطعمة؛ كالشحوم، ولحوم الإبل، وبعض الطيور، وغيرها، وأحل لهم السبت، وهذا دليل على أن عيسى عليه السلام لم يكن ملزماً باتباع جميع الشرائع والأحكام الواردة في التوراة، بل من المهام التي ابتعثه الله بها، أن ينسخ بعض ما حُرم على بني إسرائيل، فيخفف عنهم بأحكام جديدة تفيد الحل والإباحة، وليبين لهم الحق فيما قد اختلفوا فيه، لعلهم يشكرون، ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ﴾ آل عمران:50. وكما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ الآيات الظاهرات الواضحات في الإعجاز، وفي الدلالة على أنه عبد الله ورسوله، ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾؛ بالفقه والسُّنن التي أوحاها الله إلي، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ

فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ﴾ الزخرف:63. وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المائدة:46.

ومنها: لما غلب على كثير من بني إسرائيل أن لا يؤمنوا إلا بما تدركه حواسهم، وأبصارهم، حتى أنهم قالوا من قبل لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا اللهَّ جَهْرَةً﴾، وقد صنعوا لأنفسهم عجلاً من ذهب، وعكفوا على عبادته من دون الله، ﴿ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ النساء:153. أيَّد الله عبده ونبيه عيسى عليه السلام بالآيات والمعجزات الظاهرة الباهرة، تصديقاً له، ولدعوته، وإعانة له على مواجهة جحود وكفر وتكذيب اليهود، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ علامة دالة على نبوتي، وأني رسول الله إليكم، وهي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهَّ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهَّ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران:49. والأكمه؛ هو الأعمى؛ سواء ولد أعمى، أم طرأ عليه العَمى، وقوله ﴿بِإِذْنِ اللهَّ﴾؛ وتكراره لهذا القول عند كل فعل، ليدلل أن هذا الذي يقوم به من الخوارق والمعجزات، ليس من عند نفسه وذاته، وإنما هو من عند الله، ويتم بأمر من الله تعالى ومشيئته، فهو الفاعل الحقيقي لهذه المعجزات. وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي الآيات والمعجزات الظاهرات والواضحات الآنفة الذكر، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ البقرة:87. أي جبريل عليه السلام.

وهم بدلاً من أن يُقابلوا هذه الآيات والمعجزات بالإيمان والرضا والتسليم، فقد جحدوها، وقالوا ما هي إلا سحر، وكفروا بعيسى عليه السلام، وهموا بقتله وأذاه، حسداً من عند أنفسهم، وهذا شأن وحال كل مَن لا يؤمن بالغيب، لو أتيته بكل آية لقابلها بالتكذيب، والجحود، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة:110.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي رددت أذاهم وشرهم عنك، وحفظتك منهم ومن شرهم، لما هموا وأرادوا قتلك، حسداً من عند أنفسهم وكفراً لما جئتهم بالبينات!

ومنها: نزول المائدة من السماء؛ إذْ سأل الحواريون عيسى عليه السلام ــ وهم صفوة أصحابه، والأكثر قرباً منه ــ أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء، يأكلون منها، وتكون لهم عيداً .. لكنهم وللأسف لم يحسنوا السؤال، ولم يُراعوا أدب السؤال؛ حيث أنهم ــ بسؤالهم ــ قد أساؤوا الظن بالله، وبرسوله المسيح عليه السلام .. وهذا لا يُستَبعَد في بيئة قد شكَّل فيها اليهود ضغطاً هائلاً في التشويش على إيمانِ الناس، وعلى صفاء عقيدتهم، ونظرتهم إلى عيسى عليه السلام!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾؛ قال الجُزَري في التفسير: "نداؤهم له باسمه؛ دليلٌ على أنهم لم يكونوا يعظمونه كتعظيم المسلمين لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنهم كانوا لا ينادونه باسمه، وإنما يقولون: يا رسولَ الله، يا نبي الله". قلت: ربما كان هذا منهم في أول عهدهم مع عيسى عليه السلام، وإيمانهم به، ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ وهذا يُفيدُ الشَّكَّ بقدرة الله! ﴿قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ وهذا يفيد بأن المسيح عليه السلام قد استعظم سؤالهم بهذه الطريقة، وإلا لما أنكر عليهم، وطالبهم بأن يتقوا الله، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾؛ وهذا يُفيد الشَّكَّ برسول الله!﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾؛ علامة دالة على وحدانيتك، وقدرتك، وأنك على كل شيء قدير، وأنني نبيك ورسولك، ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾؛ أي فمن يكفر منكم بعد أن يرى الآيات والمعجزات، وتقوم عليه الحجة الشرعية القاطعة، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة:112-115. لأن الكفر بعد مشاهدة الآيات والمعجزات الخارقة، والتي هم طالبوا بها، كفر مغلظ، يستوجب عذاباً مغلظاً، فالعالِم يُؤخَذ بما لا يؤخذ به الجاهل .. ومن تقومُ عليه الحُجة ليس كمن يجهلها، ومن يرى الآيات ليس كمن غاب عنها؛ من حيث المؤاخذة، واستحقاق الوعيد، ودرجة الوعيد.

ومنها: تبشيره برسولٍ يأتي من بعده، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الصف:6. وأحمد ومحمد اسمان من أسماء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكلاهما مشتقان من صفة الحمد، ويدلان على المبالغة في الحمد؛ فأحمد يفيد المبالغة في فعل الحمد، حمَدَ أحمَد الأكثر حمدَاً لله، ومحمّد؛ أي المحمود كثيراً في السماء والأرض، لعظيم صفاته، وأخلاقه المحمودة، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم الأحمَدَ، كافأه الله من جنس فعله فجعله محمّداً. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ﴾؛ عهدهم المؤكد ﴿، لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾؛ مهما آتيتكم من كتاب وحكمة، ﴿ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ﴾؛ أي بهذا الميثاق والعهد، ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾؛ عهدي الثقيل، والمشدد والمؤكد، ﴿قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران:81. عليكم وعلى أممكم .. فجميع الأنبياء والرسل ــ بمن فيهم عيسى عليه السلام ــ قد أقروا وشهدوا، وشهد الله عليهم، وأمرهم بأن يُشهدوا على أتباعهم وأممهم، لإن بُعث محمد صلى الله عليه وسلم في زمانهم أو في زمان أحدهم، لوجب عليهم الإيمان به، واتباعه، والاقتداء به، وأن ينصروه على عدوه، وعلى نشر دينه .. وهذا من لوازمه ومعانيه أن جميع الأنبياء والرسل كانوا يبشرون أممَهم وأتباعهم، بمبعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويأخذون منهم العهد والميثاق على أن يؤمنوا به، وأن يتبعوه في حال

أرسله الله تعالى. وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو نزل موسى فاتبعتُموهُ وتركتُموني لضلَلْتُمْ، أنا حظُّكم منَ النبيينَ، وأنتم حظي منَ الأمَمِ" [36]. وفي رواية: "لو كان أخي موسى حيًّا ما وسِعَه إلا اتِّباعي" [37].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ، وكان آخرَ مَن بشَّر بي عيسى ابنُ مريمَ" [38]. والمراد بقوله " أنا دعوة أبي إبراهيم"، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ البقرة:129. فأجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام، بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "أخذ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنّي الميثاقَ كما أخذ من النَّبيِّين ميثاقَهم، وبشَّر بي عيسى ابنُ مريمَ، ورأت أمي في منامِها أنه خرج من بين رجلَيها سراجٌ أضاءَت له قصورُ الشامِ" [39].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنِّي عندَ الله، مكتوبٌ خاتمُ النَّبيِّنَ، وإنَّ آدمَ لمنجَدلٌ في طينتِه، وسأخبرُكم بأوَّلِ أمري: دَعوةُ إبراهيمَ، وبِشارةُ عيسَى، ورؤيا

---

36 صحيح الجامع: 5302.

37 إرواء الغليل: 1589، وقال عنه الألباني في التخريج: حسن.

38 السلسلة الصحيحة: 1546.

39 صحيح الجامع: 224.

أمِّي الَّتي رأَت حين وضعَتني وقد خرج لها نورٌ أضاءَت لها منه قصورُ الشَّام" [40].

ومن حديث النجاشي، بعد أن سمع مقالة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، قال النجاشي: "أشهدُ أنَّهُ رسولُ الله، وأنَّهُ الذي بشرَ بِهِ عيسى ابنُ مرْيَمَ، ولَوْلَا مَا أنا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لأَتَيْتُهُ حتى أحمِلَ نعْلَيْه" [41].

وعن سَلمانَ الفارسي رضي الله عنه، قال: "فَترَة بينَ عيسَى ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهما وسلم سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ" البخاري.

ـــ مبدأ ومنشأ تحريف التوراة والإنجيل!

عن ابن عباس رصي الله عنه قال: "كانت ملوكٌ بعد عيسى ابنِ مريمَ عليه الصلاة والسلام بدَّلوا التوراةَ والإنجيلَ، وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراةَ، قيل لملوكهم: ما نجد شتمًا أشدَّ من شتمِ يشتمونا هؤلاءِ؛ إنهم يقرءون: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾، وهؤلاء مع ما يعيبونا به في أعمالنا في قراءتهم، فادعُهم فليقرءوا كما نقرأُ، وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم، فجمعهم، وعرض عليهم القتلَ، أو يتركوا قراءةَ التوراةِ والإنجيلِ، إلا ما بدَّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك، دعونا! فقالتْ طائفةٌ منهم: ابنوا لنا أسطوانةً، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا

---

40 تخريج مشكاة المصابيح 5691، وقال عنه الألباني: صحيح.

41 أخرجه الحاكم في المستدرك، وغيره، أحكام الجنائز، ص117. قال عنه الألباني: إسناده صحيح.

شيئًا نرفع به طعامَنا وشرابَنا، فلا نردُّ عليكم، وقالت طائفةٌ منهم: دعونا نسيحُ في الأرض، ونهيم ونشرب كما يشرب الوحشُ، فإن قدرتم علينا في أرضِكم، فاقتلونا، وقالت طائفةٌ منهم: ابنوا لنا دورًا في الفيافي، ونحتفر الآبارَ، ونحترثُ البقولَ، فلا نرِدُ عليكم ولا نمرُّ بكم، وليس أحدٌ من القبائل إلا وله حميمٌ فيهم، قال: ففعلوا ذلك، فأنزل اللهُ عز وجل: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللهِ﴾ الحديد:27. والآخرون قالوا: نتعبَّد كما تعبد فلانٌ، ونسيح كما ساح فلانٌ، ونتخذ دورًا كما اتخذ فلان، وهم على شِركهم، لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث اللهُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولم يبق منهم إلا قليلٌ، انحطَّ رجلٌ من صومعته، وجاء سائحٌ من سياحته، وصاحبِ الديرِ من ديره، فآمنوا به وصدقوه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيلِ، وبإيمانهم بمحمدٍ وتصديقهم،﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ القرآنُ، واتباعهم النبيَّ،﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديد:28.[42].

من هذا الأثر يتبين أهمية الصدع بالحق، وثبات العلماء على الحق، وبخاصة عند مورد الحاجة، وفي الأمور الهامة والمفصلية التي ترتبط بهداية الناس أو ضلالهم .. فهؤلاء الرهبان لَمَّا آثروا الرهبنة، والانطواء والانعزال، والسكوت عن الصدع بالحق، مقابل أن يَسْلَموا بأنفسهم .. ثبت التحريف لكتاب الله، وضلوا، وأضلوا الناس من بعدهم ممن اقتدى بهم، فاتبعوهم على الرهبنة، وهم على الشرك، وعقيدة

---

[42] صحيح سنن النسائي: 5415.

التحريف، لأنهم رأوا منهم الرّهبنة، ولم يسمعوا منهم الإنكار على الشرك، وعلى التحريف .. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: "أفضلُ الجهاد؛ كلمةُ حقٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ" [43]. وقال صلى الله عليه وسلم: "أَحَبُّ الجهادِ إلى اللهِ كلمةُ الحقِّ تُقالُ لإمامٍ جائرٍ" [44].

ـ نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض.

لم تكتمل مهمة ورسالة عيسى عليه السلام، لذا فإن الله تعالى منزله ومُعيده إلى الأرض، ليتمم رسالته، والمهام الموكلة إليه من ربه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ الزخرف:61. أي نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، علامة من علامات اقتراب الساعة، فلا تَشكنَّ بهذه العَلامة.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾؛ أي بعيسى عليه السلام، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ النساء:159. وهذا لم يتحقق، وإنما يتحقق بإذن الله بعد نزوله إلى الأرض، وقبل موته.

وعن ابن عباس: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، قال: قبل موت عبسى عليه السلام [45].

---

[43] صحيح سنن النسائي: 4220.

[44] صحيح الجامع: 168.

[45] عمدة التفسير:1/ 599: قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ الساعةَ لا تكون حتى تكون عشر آيات ــ وعدَّ منها ــ: نزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ..."مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم، وإمامُكم مِنكم " متفق عليه. وفي رواية عند مسلم: "كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم، وأمَّكُم .. فينزلُ عِيسى ابنُ مريمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأَمَّهُمْ ". قلت: لا تعارض بين الروايتين، فالرواية الأولى، تبين أن الإمام حين نزول المسيح عليه السلام، يكون واحداً من المسلمين ــ وقيل أنه يكون المهدي ــ، فيرتضيه المسيح عليه السلام إماماً، تكرمة لهذه الأمة، وأما الرواية الثانية تبين أن إمامة الصلاة ــ والإمامة العامة ــ تؤول بعد ذلك إلى رسول الله المسيح عليه السلام، ولعل مما يؤكد هذا المعنى، الرواية التالية: "ينزلُ عيسى ابنُ مريمَ، فيقولُ أميرُهمُ المهديُّ: تعالَ صلِّ بِنا، فيقولُ: لا؛ إن بعضَهم أميرُ بعضٍ؛ تَكرِمةُ اللهِ لهذه الأمةِ" [46]. وفي رواية: "فبَيْنَما إمامُهم قد تَقَدَّم يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ، إذ نزل عليهم عيسى ابنُ مريمَ الصُّبْحَ، فرجع ذلك الإمامُ يَنْكُصُ يَمْشِي القَهْقَرَى ليتقدمَ عيسى، فيضعُ عيسى يدَه بين كَتِفَيْهِ، ثم يقولُ له: تَقَدَّمْ فَصَلِّ؛ فإنها لك أُقِيمَتْ، فيُصَلِّي بهم إمامُهم" [47]. وقال صلى الله

[46] السلسلة الصحيحة: 2236.

[47] أحرجه أبو داود، وغيره، صحيح الجامع: 7875.

عليه وسلم: "منَّا الذي يُصلي عيسى ابنُ مريم خلفَه" [48]. وهذا يكون عند النزول فقط كما تقدم، والله تعالى أعلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ينزلُ عيسى ابنُ مريم عند المنارةِ البيضاء شرقي دمشق" [49]. وفي رواية: "ينزل عيسى بنُ مريمَ عليه السلامُ عند المنارةِ البيضاءِ شَرقِيَّ دمشقَ، عليه مُمَصَّرتانِ كأنَّ رأسَه يقطُرُ منه الجُمانُ" [50]. "مُمَصَّرتانِ"؛ ثوبان مصبوغان بصفرة خفيفة، و " الجُمانُ"؛ اللؤلؤ! والحديث فيه إشارة قوية إلى أن الشام " دمشق " سيعود إليها ــ بإذن الله ــ مجدها، ودورها الريادي، والحضاري، في قيادة الأمم والشعوب والدول، وأن الظالمين الذين يحكموناها، وتَسلَّطوا عليها في هذه الأيام، ويعيثون فيها فساداً، ما هم إلا غيمة سوداء ستزول عن سما الشام بإذن الله، كما زال مَن قبلهم من الظالمين، وما ذلك ببعيد.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس بيني وبينَ عيسى نبيٌّ، وإِنَّه نازلٌ، فإذا رأيتُموه فاعرِفوه ..."[51]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ليُدْرِكَنَّ المسيحُ أقوامًا إنَّهم لَمِثْلُكم ــ أو خيرٌ ثلاثًا ــ ولن يُخْزيَ اللهُ أمَّةً أنا أوَّلُها، والمسيحُ آخرُها" [52].

---

48 السلسلة الصحيحة: 2293. وصحيح الجامع: 5920.

49 صحيح الجامع: 8169.

50 فضائل الشام ودمشق، قال الألباني في التخريج: صحيح.

51 أخرجه أبو داود، وغيره، صحيح الجامع: 5389.

52 قال ابن حجر في الفتح 9/ 7: إسناده حسن.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تَزالُ طائِفةٌ من أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحقِّ ظاهِرينَ إلى يومِ القيامَةِ، فيَنْزِلُ عيسَى ابنُ مَريَمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيقولُ أميرُهُم: تَعالَ صَلِّ لنا، فيقول: لا؛ إن بَعضَكُم علَى بعضٍ أُمَراءُ، تَكرِمَةَ اللهِ هذه الأُمَّةَ " مسلم. وفي رواية: "لا تَزالُ طائفةٌ من أمَّتي يقاتِلونَ على الحقِّ ظاهِرينَ علَى من ناوَأَهُم حتَّى يُقاتلَ آخرُهُمُ المسيحَ الدَّجَّالَ" [53]. وفي الحديث دلالة على أن للشام وأهله الحظ الأوفر من هذه الطائفة المنصورة الظاهرة، التي سيقاتل آخرُها المسيحَ الدجّال، مع المسيح عيسى عليه السلام .. وغيرها كثيرة هي الأحاديث التي تدلل وتنص على نزول المسيح عليه السلام، سنأتي على ذكرها ــ إن شاء الله ــ عند الحديث عن الأعمال التي سيقوم بها المسيح عليه السلام بعد النزول.

ــ الأعمال التي سيقوم بها المسيح عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض.

دلت نصوص السّنَّة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن المسيح عليه السلام، سينزل إلى الأرض حكَماً عَدْلاً، وإماماً مقسطاً، وأنه سيقوم بجملة من المهام والأعمال العظيمة، والتي منها: قتله للمسيح الأعور الدجال، حيث تكون فتنته قد اشتدت على الناس، وكسر الصليب ومحوه، وقتل الخنزير، ووضع الجزية؛ فلا يقبلها من أحد؛ فلا يقبل منهم إلا الإسلام، فخيار الجزية يتوقف العمل به، ووضع الزكاة؛ لاستفاضة المال في زمانه، فلا يوجد من يأخذه، وغيرها من الأعمال.

---

[53] صحيح سنن أبي داود: 2484.

كما في الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "بعث اللهُ المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزل عند المنارةِ البيضاءِ شَرقَي دمشقَ، بين مَهرودَتَينِ ــ أي بثوبين مصبوغين بصفرة خفيفة ــ واضعًا كفَّيه على أجنحةِ ملَكَينِ، إذا طأطأَ رأسَه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمانٌ كاللؤلؤ ــ أي تحدر منه الماء حبيبات وقطرات كاللؤلؤ ــ فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ريح نَفَسِه إلا ماتَ، ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفُه، فيطلبه ــ أي فيطلب المسيح الدجال ــ حتى يدركَه ببابِ لُدَّ، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ قد عصمهم اللهُ منه ــ أي من فتنة المسيح الدجال ــ فيمسح عن وجوهِهم، ويحدثُهم بدرجاتِهم في الجنةِ " مسلم. وفي رواية: "فينزلُ عِيسى ابنُ مريمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأَمَّهُمْ، فإذا رآهُ عدوُّ اللهِ، ذابَ كما يذوبُ الملحُ في الماءِ، فلوْ تركَهُ لانذابَ حتى يهلكَ، ولكنْ يقتلُهُ اللهُ بيدِهِ، فيريهِمْ دمَهُ في حربتِهِ" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "يا أَيُّها الناسُ! إنها لم تكن فتنةٌ على وجهِ الأرضِ منذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدمَ أَعْظَمَ من فتنةِ الدَّجَّالِ، وإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لم يَبْعَثْ نبيًّا إلا حَذَّرَ أُمَّتَه الدَّجَّالَ، وأنا آخِرُ الأنبياءِ، وأنتم آخِرُ الأُمَمِ، وهو خارجٌ فيكم لا مَحالةَ، فإن يخرجْ وأنا بين أَظْهُرِكم فأنا حَجِيجٌ لكلِّ مسلمٍ، وإن يخرجْ من بَعْدِي، فكلُّ حَجِيجُ نفسِه، واللهُ خَلِيفَتِي على كلِّ مسلمٍ، وإنه يخرجُ من خُلَّةٍ بين الشامِ والعراقِ، فيَعِيثُ يمينًا وشمالًا. يا عبادَ الله! أَيُّها الناسُ! فاثبُتوا فإني سأَصِفُه لكم صفةً لم يَصِفْها إياه قبلي نبيٌّ، يقولُ: أنا ربُّكم، ولا تَرَوْنَ ربَّكم حتى تَمُوتُوا، وإنه أَعْوَرُ، وإنَّ ربَّكم ليس بأَعْوَرَ، وإنه مكتوبٌ بين عَيْنَيْهِ: كافرٌ؛ يقرؤُه كلُّ مؤمنٍ؛ كاتِبٌ أو غيرُ كاتِبٍ، وإنَّ من فتنتِه أنَّ معه جَنَّةً ونارًا، فنارُه جنةٌ، وجنتُه نارٌ، فمَن

ابتُلِيَ بنارِه فلْيَسْتَغِثْ بالله، ولْيَقْرَأْ فواتِحَ الكهفِ، وإنَّ من فتنتِه أن يقولَ للأعرابيِّ: أرأيتَ إن بَعَثْتُ لك أباك وأمَّك أَتَشْهَدُ أني ربُّك؟ فيقولُ: نعم، فيتمثلُ له شيطانانِ في صورةِ أبيه وأمِّه، فيقولانِ: يا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ، فإنه ربُّك، وإنَّ من فتنتِه أن يُسَلَّطَ على نفسٍ واحدةٍ فيَقْتُلُها، يَنْشُرُها بالمِنْشارِ حتى تُلْقَى شِقَّيْنِ، ثم يقولُ: انظُرُوا إلى عَبْدِي هذا؛ فإني أَبْعَثُه ثم يَزْعُمُ أنَّ له ربًّا غيري، فيبعثُه اللهُ، ويقولُ له الخبيثُ: مَن ربُّك؟ فيقولُ: رَبِّيَ اللهُ، وأنت عَدُوُّ الله؛ أنت الدَّجَّالُ، واللهِ ما كنتُ قَطُّ أَشَدَّ بصيرةً بك مِنِّي اليومَ[54]، وإنَّ من فتنتِه أن يأمرَ السماءَ أن تُمْطِرَ، فتُمْطِرُ، ويأمرَ الأرضَ أن تُنْبِتَ، فتُنْبِتُ، وإنِّ من فتنتِه أن يَمُرَّ بالحيِّ فيُكَذِّبونه، فلا يَبْقَى لهم سائمةٌ ــ أي المواشي والدواب التي ينتفعون بها ــ إلا هَلَكَت، وإنَّ من فتنتِه أن يَمُرَّ بالحيِّ، فيُصَدِّقونه، فيأمرُ السماءَ أن تُمْطِرَ فتُمْطِرُ، ويأمرُ الأرضَ أن تُنْبِتَ فتُنْبِتُ، حتى تَرُوحَ مَواشِيهِم من يومِهِم ذلك أَسْمَنَ ما كانت، وأَعْظَمَه، وأَمَدَّه خَواصِرَ وأَدَرَّهُ ضُروعًا، وإنه لا يَبْقَى شيءٌ من الأرضِ إلا وَطِئَه وظَهَر عليه، إلا مكةَ والمدينةَ، لا يأتِيهِما من نَقَب من أنقابِهِما ــ أي جهة من جهاتها ــ إلا لَقِيَتْهُ الملائكةُ بالسيوفِ صَلْتَةً ... فبَيْنَما إمامُهم قد تَقَدَّم يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ، إذ نزل عليهم عيسى ابنُ مريمَ الصُّبْحَ، فرجع ذلك الإمامُ يَنْكُصُ يَمْشِي القَهْقَرَى ــ أي يرجع عن موقف الإمامة إلى الخلف ــ ليتقدمَ عيسى، فيضعُ عيسى يدَه بين كَتِفَيْهِ، ثم يقولُ له: تَقَدَّمْ فَصَلِّ؛

---

[54] من كرامة هذا الشاب المؤمن وبعد أن صدع بالحق في وجه الطاغوت الدجال، أن الله تعالى يعصمه من الدجال فلا يقدر أن يقتله ثانية، كما أن الدجال لم يقدر على تكرار هذه التجربة مع غيره.

فإنها لك أُقِيمَتْ، فيُصَلِّى بهم إمامُهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتَحوا البابَ، فيَفْتَحُون ووراءَه الدَّجَّالُ، معه سبعونَ ألفَ يهوديٍّ، كلُّهم ذو سيفٍ مُحَلًّى وسَاجٍ ــ ثوب خاص باليهود ــ فإذا نظر إليه الدَّجَّالُ ذابَ كما يذوبُ المِلْحُ في الماءِ، وينطلقُ هاربًا، فيُدْرِكُه عند بابِ لُدٍّ الشرقيِّ، فيقتلُه، فيَهْزِمُ اللهُ اليهودَ، فلا يَبْقَى شيءٌ مِمَّا خلق اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَتَواقَى به يهوديٌّ، إلا أَنْطَقَ اللهُ ذلك الشيءَ؛ لا حَجَرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابةٌ، إلا الغَرْقَدَةُ؛ فإنها من شَجَرِهِم لا تَنْطِقُ، إلا قال: يا عبدَ اللهِ المسلمَ هذا يهوديٌّ فتَعَالَ اقتُلْه، فيكونُ عيسى ابنُ مريمَ في أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا، وإمامًا مُقْسِطًا، يَدُقُّ الصليبَ، ويَذْبَحُ الخِنْزيرَ، ويضعُ الجِزْيةَ، ويتركُ الصدقةَ، فلا يَسْعَى على شاةٍ ولا بعيرٍ ..."[55]. وقوله" يخرجُ من خُلَّةٍ بين الشامِ والعراقِ"؛ أي طريق وموضع ما بين الشام والعراق. وقوله " وأَمَدَّه خَواصِرَ وأَدَرَّهُ ضُروعًا"؛ أي ممتلئة البطون، والضروع، وأكثر لبناً وحلباً وقوله " ويضعُ الجِزْيةَ"؛ لأنه لا يقبل من المخالفين إلا الإسلام، والناس كلهم يصبحون على ملة واحدة، وهي ملة الإسلام. " ويتركُ الصدقةَ"؛ لاستفاضة المال، وعدم وجود من يأخذه فإنه يترك الزكاة، فلا يسعى على تحصيلها.

---

[55] أخرجه أبو داود، وابن ماجه، صحيح الجامع: 7875. قلت: الأحاديث التي تتكلم عن خطر وفتنة المسيح الأعور الدجال كثيرة، وليس غرضنا هنا إحصاؤها والحديث عنها، وإنما الغرض من هذا الكتاب، بيان الأعمال التي قام بها عيسى عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض.

وقال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيدِه، ليوشِكنَّ أن يَنزِلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حكَمًا مُقْسِطًا ــ أي حاكماً عادلاً ــ فيَكسِرَ الصليبَ، ويقتُلَ الخِنزيرَ، ويضَع الجِزيَةَ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يَقبلَه أحدٌ " متفق عليه.

وفي رواية: "يَنزِلُ عيسى ابنُ مريمَ، فيَقتُلُ الخِنزيرَ، ويَمحو الصَّليبَ، وتُجمَعُ له الصَّلاةُ، ويُعطِي المالَ حتَّى لا يُقبَلَ، ويَضَعُ الخَراجَ .."[56]. وقوله: "وتُجمَعُ له الصَّلاةُ"؛ أي يجمع بين الصلاتين في وقت واحد. وفي رواية: "لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى ينزِلَ عيسَى ابنُ مريمَ حَكَمًا مُقسِطًا وإمامًا عَدلًا، فيَكْسرُ الصَّليبَ، ويقتُلُ الخنزيرَ، ويضَعُ الجِزيةَ، ويَفيضُ المالُ حتَّى لا يقبلَهُ أحدٌ" [57]. وفي رواية: "والَّذي نفسِي بيدِه ليُوشِكَنَّ أنْ ينزلَ فِيكُم ابنُ مَريمَ حكمًا مُقسِطًا، وإمامًا عدلًا، فيكسِرُ الصَّليبَ، ويقتُلُ الخنزيرَ، ويضَعُ الجزيَةَ، ويَفيضُ المالُ حتَّى لا يَقبلَه أَحَدٌ، وحتَّى تكونَ السَّجدَةُ الواحِدةُ خيرًا من الدُّنيَا وما فيهَا " متفق عليه.

ــ موقف المسيح عليه السلام من يأجوج ومأجوج، وكيف تعامل معهم؟

ما إن انتهى المسيح عليه السلام من فتنة المسيح الأعور الدجال، إلا وظهرت فتنة يأجوج ومأجوج، فيُفتح عنهم السد الذي بناه عليهم ذو القرنين، ليحجب شرهم عن الناس، كما هو مبين في سورة الكهف، فيخرجون، ومن كل مرتفع يُسرعون، وينتشرون للفساد في الأرض، ولكثرتهم الفائقة وقوتهم يسودون

---

[56] أخرجه أحمد، وقال أحمد شاكر في التخريج: إسناده صحيح.

[57] صحيح سنن ابن ماجه: 3312.

الأرض، فلا يقوى مخلوق على مواجهتهم، وإيقاف زحفهم، وانتشارهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ الأنبياء: 96. أي من كل مرتفع يسرعون في الانتشار إلى الفساد في الأرض. وفي الحديث، قال صلى الله عليه وسلم: "لن تقومَ ــ أي الساعة ــ حتى ترَون قبلَها عشرَ آياتٍ"، وعدَّ منها: "نزولَ عيسى ابنِ مريم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويأجوجَ ومأجوجَ ..."مسلم.

فكيف تعامل المسيح عليه السلام مع هذه الفتنة العظيمة ..؟

من حديث طويل في صحيح مسلم، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "فبينما هو كذلك ــ أي بعد مقتل المسيح الأعور الدجال، والانتهاء فتنته ــ إذ أوحى اللهُ إلى عيسى: إني قد أخرجتُ عبادًا لي لا يدَانِ لأحدٍ بقتالهم، فحرِّزْ عبادي إلى الطور، ويبعث اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كلِّ حدَبٍ ينسِلونَ، فيمرُّ أوائلُهم على بحيرةِ طَبَرِيَّةَ فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرُهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماءً! ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبلِ الخمرِ؛ وهو جبلُ بيتِ المَقدسِ، فيقولون: لقد قتَلْنا مَن في الأرضِ، هَلُمَّ فلنقتلْ مَن في السماءِ، فيرمون بنُشَّابِهم إلى السماءِ، فيردُّ اللهُ عليهم نُشَّابَهم مخضوبةً دماً، ويحصر نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكون رأسُ الثَّورِ لأحدِهم خيرًا من مائةِ دينارٍ لأحدِكم اليومَ، فيرغب نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ ــ نوع من الدود ــ في رقابِهم، فيصبحون فرْسَى ــ قتلى ــ كموتِ نفسٍ واحدةٍ، ثم يهبط نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يجِدون في الأرضِ موضعَ شبرٍ إلا ملأه زَهمُهم ونتْنُهم ــ أي

دسمهم ورائحتهم الكريهة النتنة ــ فيرغب نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى اللهِ، فيرسل اللهُ طيراً كأعناقِ البُختِ ــ أي أعناقها طويلة كأعناق الإبل ــ فتحملُهم فتطرحهم حيث شاء اللهُ، ثم يرسل اللهُ مطرًا لا يَكِنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٌ، فيغسل الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَفَةِ ...". كالمرآة من شدة نظافة الأرض وطهرها من نتنهم. وقوله " فحرِّزْ عبادي إلى الطور"؛ أي اجمعهم واصعد بهم إلى جبل الطور، وهو جبل في سيناء، واجعله حصناً وحرزاً لهم. وقوله " لا يَكِنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٌ"؛ أي لا بمنع من وصول ماء المطر بيوت الطين، ولا بيوت الشَّعر، فماء المطر يعم جميع مناطق تواجد جثثهم.

ــ الشريعة التي سيحكم بها المسيح عليه السلام، والدِّين الذي سيدعو إليه.

بعد الانتهاء من فتنة يأجوج ومأجوج، جميع من في الأرض، بمن فيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، سيؤمنون بالمسيح عليه السلام، ويدخلون في دين الله الإسلام، ويحكم المسيح فيهم بشريعة الإسلام، حَكَمًا مُقسِطًا، وإمامًا عَدلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ النساء:159.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ريح نَفَسِه إلا ماتَ، ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفُه " مسلم. والمراد بالكافر؛ الكافر الذي يصر على المعاندة، ويأبى أن يؤمن به .. فكل من يأبى أن يؤمن بعيسى عليه السلام، ويؤثر المعاندة والمحاربة، يكفي من عيسى عليه السلام أن يقع بصره عليه، فيموت من جرَّاء ذلك.

وقال صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام: "فيقاتِلُ الناسَ على الإسلامِ ، فيَدُقُّ الصليبَ، و يقتُلُ الخنزيرَ، و يَضَعُ الجزيةَ، و يُهلِكُ اللهُ في زمانه المِلَلَ كلَّها إلا الإسلامَ، ويُهلِكُ اللهُ المسيحَ الدَّجَّالَ ..."[58].

وقال صلى الله عليه وسلم: "ينزلُ عيسَى ابنُ مريمَ حكَمًا مقسِطًا، فيكسرُ الصَّليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، وتكونُ الدَّعوةُ للهِ ربِّ العالمينَ" [59]. أي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كيفَ أنتم إذا نزَل فيكُمُ ابنُ مريمَ فأمَّكم منكم ؟"، فقُلتُ ــ أي الوليد بن مسلم ــ لابنِ أبي ذِئبٍ: إنَّ الأَوزاعِيَّ حدَّثَنا عن الزُّهرِيِّ، عن نافِعٍ، عن أبي هُرَيرَةَ: وإمامُكم منكم. قال ابنُ أبي ذِئبٍ: تدري ما أمَّكم منكم؟ قُلْتُ: تُخبِرُني. قال: فأمَّكم بكتابِ ربِّكم تبارَك وتعالى، وسُنَّةِ نبيِّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم " مسلم.

والإجماع منعقد بين علماء الأمة على أن المسيح عليه السلام عندما ينزل من السماء، سيحكم بشريعة الإسلام، وأنه سيكون متبعاً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإن قيل: ولكن الأعمال التي سيقوم بها المسيح عليه السلام عند نزوله من السماء، والتي منها وضع الجزية، والصدقات، وكسر الصليب، وقتل الخنزير، وغيرها من الأعمال التي تقدم ذكرها .. لم تكن من شرع محمد صلى الله عليه وسلم،

---

[58] أخرجه، أبو داود، وأحمد، وابن حبان في صحيحه، السلسلة الصحيحة: 2182. وقال شعيب الأرناؤوط في تخريجه لصحيح ابن حبان، 6821: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[59] أخرجه ابن عبد البَر في الاستذكار 7/ 339، وقال: حديث ثابت.

فكيف نوفق بين ذلك، وبين القول بأن عيسى عليه السلام سيتبع الشرع المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟

أقول: لا تعارض ولله الحمد؛ ما سيقوم به عيسى عليه السلام من أعمال عند نزوله، قد شرعها النبي محمد صلى الله عليه وسلم على يد عيسى عليه السلام وقت نزوله، وفي زمانه، فكل ما سيقوم به عيسى عليه السلام من أعمال، فقد أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وأذن بها، وهي من شرعه في آخر الزمان، وبهذا المعنى يكون عيسى عليه السلام متبعاً ومصدقاً ومنفذاً لما أخبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بحصوله في آخر الزمان .. وهذا كله بوحي من الله تعالى، إذ الحكم لله تعالى وحده.

ـ حَجُّ المسيح عليه السلام إلى بيتِ الله الحرام.

ومن الأعمال التي سيقوم بها المسيح عليه السلام أنه سيحج بيت الله الحرام، ويلبي بحج وعمرة، ويؤدّي المناسك، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: "والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لَيُهلَّنَّ ابنُ مريمَ بفجِّ الرَّوحاءِ، حاجًّا أو معتمرًا، أو ليُثنِّيَهما". وقوله " لَيُهلَّنَّ ابنُ مريمَ بفجِّ الرَّوحاءِ"؛ أي يرفع صوته بالتَّلبية، وفَج الرَّوحاءِ؛ موضع بين المدينة ومكة.

وقال صلى الله عليه وسلم: "يَنزِلُ عيسى ابنُ مريمَ، فيَقتُلُ الخِنزيرَ، ويَمحو الصَّليبَ، وتُجمَعُ له الصَّلاةُ، ويُعطِي المالَ حتَّى لا يُقبَلَ، ويَضَعُ الخَراجَ، ويَنزِلُ

الرَّوْحاءَ فيَحُجُّ منها أو يَعتَمِرُ أو يَجمَعُهُما .."[60]. وفي رواية: "ليَهْبِطَنَّ عيسى ابنُ مريمَ حَكَمًا وإمامًا مُقْسِطًا، و لَيَسْلُكَنَّ فَجًّا فَجًّا، حاجًّا أوْ معْتَمِرًا، وَليأْتِيَنَّ قَبْرِي حتى يُسَلِّمَ عَلَيَّ، ولَأَرُدَّنَّ علَيْهِ" [61].

ـ الصِّفاتُ الخَلْقيَّةُ للمسيحِ عيسى عليه السلام.

مما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته الصِّفاتُ الخَلْقيَّةُ لأخيه المسيحِ عيسى عليه السلام، ليسهل على المسلمين التعرف عليه عند نزوله، وحتى لا يلتبس عليهم حاله، بدعي آخر كذَّاب كالمسيح الأعور الدجّال، الذي يدعي في بادئ أمره أنه المسيح عيسى، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وأراني الليلةَ عند الكعبةِ في المنامِ، فإذا رجلٌ آدمُ، كأحسنِ ما يُرى من أُدْمِ الرجالِ تَضرِبُ لِمَّتُه بين مَنكَبيه، رَجِلُ الشعرِ، يَقطُرُ رأسُه ماءً، واضعًا يديه على مَنكِبي رجلين وهو يطوفُ بالبيتِ، فقلتُ: من هذا ؟ فقالوا: هذا المسيحُ بنُ مريمَ .. " متفق عليه. وقوله" فإذا رجلٌ آدَمُ"؛ أي ذو بشرة سمراء حسنة جميلة، يعلوها ويمازجها بياض وحمرة، يزيدها حسناً وجمالاً، فلا هو عليه السلام أسمر خالص السمرة، ولا هو أبيض خالص البياض، وإنما مزيج من اللونين كأحسن وأجمل ما يكون المزج بين لونين، هذا ما يقتضيه التوفيق مع الروايات الأخرى والصحيحة التي تصف المسيح عليه السلام بأنه أبيض أحمر. وقوله: "تَضرِبُ لِمَّتُه بين مَنكَبيه"؛ هو تجاوز شعر الرأس

---

[60] أخرجه أحمد في مسنده، وقال أحمد شاكر في التخريج 15/ 27 : إسناده صحيح.

[61] أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، 7723، وقال: حديث صحيح.

شحمتي الأذنين، فيُقارب الكتف، ولا يبلغه، " رَجِلُ الشعرِ"؛ أي سرحه ودهنه بالطيب. وفي رواية: "أُرَانِي الليلةَ عند الكعبةِ، فرأيتُ رجلًا آدَمَ، كأَحْسَنِ ما أنتَ راءٍ من أُدُمِ الرجالِ، له لِمَّةٌ كأَحْسَنِ ما أنتَ راءٍ من اللِّمَمِ، قد رَجَّلَها ــ أي سرحها ودهنها بالطيب ـ تَقْطُرُ ماءً، مُتَّكِئًا على رَجُلَيْنِ أو على عَوَاتِقِ رَجُلَيْنِ، يطوفُ بالبيتِ، فسألتُ: مَن هذا؟ فقيل المسيحُ ابنُ مريمَ .."متفق عليه. وفي رواية عند مسلم: "رأيتُ عندَ الكعبةِ رجلا آدَمَ، سبطَ الرأسِ، واضِعاً يديهِ على رجلينِ، يسكبُ رأسهُ أو يقطرُ رأسه، فسألت: من هذا؟ فقالوا: المسيحُ بن مريم .."

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس بيني وبينه نبيٌّ ــ يعنى عيسَى ــ وإنَّه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلٌ مربوعٌ، إلى الحُمرةِ والبياضِ، بين مُمَصَّرتَيْن ــ ثوبين جميلين فيها صفرة خفيفة ــ كأنَّ رأسَه يقطُرُ، وإن لم يُصِبْه بَللٌ .."[62]. وقوله " رجلٌ مربوعٌ"؛ أي لا هو بالطويل، ولا هو بالقصير. وقوله " كأنَّ رأسَه يقطُرُ، وإن لم يُصِبْه بَللٌ"؛ هذه صفة ذاتية غير مرتبطة ببرودة الطقس أو درجة حرارته.

وقال صلى الله عليه وسلم: "عرِض عليَّ الأنبياءُ، ورأيتُ عيسى بنَ مريمَ عليه السلامُ، فإذا أقربُ من رأيتُ به شبهًا عروةُ بنُ مسعودٍ الثقفي .." مسلم. أي شبهاً بملامحه وهيئته، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: "مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي على موسى بنِ عمرانَ عليهِ السلامُ .. ورأيتُ عيسى بنَ مريمَ مربوعَ الخَلْقِ، إلى الحمرةِ والبياضِ، سَبْطَ الرأسِ

---

[62] صحيح سنن أبي داود: 4324.

.."مسلم. وفي رواية عند البخاري: "ورَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعًا، مَرْبُوعَ الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ والبَيَاضِ، سَبِطَ الرَّأْسِ". وقوله" مربوعَ الخَلْقِ"؛ أي معتدل الخلقة؛ فلا هو بالطويل، ولا هو بالقصير. وقوله " إلى الحمرةِ والبياضِ"؛ أي يميل إلى الحمرة والبياض مع سمرة كما تقدم. وقوله " سَبْطَ الرأسِ .."؛ أي مسترسل الشعر. وفي رواية: "عيسى جعدٌ مربوعٌ" متفق عليه. وقوله" جعد"؛ أي شعره مسترسل مع التفاف حول بعضه، وهو ما يتوافق مع صفة " سَبط الرأس".

وقال صلى الله عليه وسلم: "لَقيتُ عيسى؛ رَبْعَةٌ أحمرُ، كأنما خرَج من دِيماسٍ، يعني الحمامَ " البخاري. وفي رواية: "رَأَيْتُ عِيسَى ومُوسَى وإبْرَاهِيمَ، فأمَّا عِيسَى فأَحْمَرُ، جَعْدٌ، عَرِيضُ الصَّدْرِ ..."البخاري. ونحوه في رواية عند أحمد في مسنده[63]. وفي رواية عند الطبري: "ورأيتُ عيسى عليه السلامُ شابًّا أبيضَ، جعدَ الرأسِ، حديدَ البصرِ، مُبَطَّنَ الخَلْقِ .."[64]. وقوله " مُبَطَّنَ الخَلْقِ"؛ أي ضامر وطامر البطن، وهذه صفات لا تنافي فيما بينها، بعضها يوضح بعض، ويزيدها إيضاحاً، توضح المعالم الظاهرة لشخصية المسيح عليه السلام.

ومن عجائب نصارى هذا الزمان أنهم كما هم مختلفون حول حقيقة عيسى عليه السلام، فهم مختلفون فيما بينهم حول الصفات الظاهرة للمسيح عليه السلام؛ هل هو أسود البشرة، أم أبيض البشرة .. فمرة يصورونه ــ والعياذ بالله! ــ في

---

63 أخرجه أحمد في مسنده، وقال أحمد شاكر في التخريج 4/ 244 : اسناده صحيح.

64 أخرجه الطبري في مسند ابن عباس، وقال: أسناده صحيح.

كنائسهم أبيض، ومرة يصورونه أسود .. وكلا الفريقين فيما يذهبان إليه لا يملكان الدليل على قولهما، وفعلهما .. يعبدون ربّاً لا يعرفون عنه شيئاً؛ حتى على لون بشرته، فهم فيما بينهم مختلفون؟!

ــ علاقة النبي محمد بأخيه المسيح عيسى عليهما الصلاة والسلام.

علاقة النبي محمد بأخيه المسيح عيسى عليهما الصلاة والسلام، علاقة أخوة، ومحبة، وتوقير واحترام، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا أَوْلى النَّاسِ بعيسى ابنِ مريمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى ودِينُهم واحد " البخاري. وفي رواية: "أنا أولى الناسِ بابنِ مريمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلّاتٍ، ليس بيني وبينه نبيٌّ" البخاري. وفي رواية عند مسلم: "أنا أولى الناسِ بعيسى بنِ مريمَ في الأولى والآخرةِ، قالوا: كيف يا رسولَ الله؟ قال: الأنبياءُ إخوةٌ من عَلَّاتٍ، وأمهاتُهم شتى، ودينُهم واحدٌ، فليس بيننا نبيٌّ". وعند الطبري زيادة: "وإنه خليفتي على أمَّتي" [65]. وقوله: "أنا أولى الناسِ بعيسى بنِ مريمَ"؛ أي أنا أخص الناس بعيسى وأقربهم إليه، فليس بيني وبينه نبي، وشأنه يخصني ويهمني أكثر من غيري. وقوله " الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ"؛ أي كالأخوة من أبٍ واحد، وأمهاتهم شتى.

[65] أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير، وقال: متواتر.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنِّي لأرجو إن طالَت بي حياةٌ أن أُدْرِكَ عيسَى ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ، فإن عَجِلَ بي موتٌ، فمَن أدرَكَهُ فليُقرئهُ منِّي السَّلامَ" [66]. وقال صلى الله عليه وسلم:"مَنْ أدرَكَ منكم عيسى ابنَ مريَمَ، فلْيُقْرِئْهُ منِّي السلامَ" [67]. ونحن في هذا الكتاب نجتهد أن نوصل سلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أخيه رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام، عَسى أن يقف عليه عيسى عليه السلام، وما ذلك على الله بعزيز .. وقوله صلى الله عليه وسلم: "إنِّي لأرجو إن طالَت بي حياةٌ أن أُدْرِكَ عيسَى ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ"؛ فيه إيحاء بأن نزول عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الأرض لن يتأخَّر، ولن يطول .. وإننا في الشّام نعيش إرهاصات ومقدمات هذا الحدث العظيم.

وعن عبد الله بن السائب، قال: "قرأَ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في صلاةِ الصُّبحِ بالمؤمنونَ فلمَّا أتى على ذِكرِ عيسى أصابتهُ شَرقةٌ فرَكعَ؛ يعني سَعلةً" [68]. وما ذلك إلا لمكانة عيسى عليه السلام العالية في دين الله تعالى، وفي نفس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

66 أخرجه أحمد في مسنده، قال أحمد شاكر 15/ 122: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 5/ 8: رواه أحمد بإسنادين؛ مرفوع وهو هذا، وموقوف ـ أي موقوف على الصحابي راوي الحديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ ورجالهما رجال الصحيح.

67 أخرجه الحاكم، صحيح الجامع: 6001.

68 صحيح سنن ابن ماجه: 676.

وقال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسُ أبي القاسمِ بيدِه لينزلَنَّ عيسَى بنُ مريمَ إمامًا مقسطًا وحكمًا عدلًا .. ثم لئن قام على قبرِي، فقال: يا محمدُ، لأجَبْتُه" .[69]

قلت: هذه المشاعر الأخوية المفعمة بالمحبة والاحترام من النبي صلى الله عليه وسلم نحو أخيه عيسى عليه السلام، هي مُلزِمة لأمته إلى يوم القيامة، فلعيسى عليه السلام من أمة الإسلام كامل المحبة، وعالي التقدير، والاحترام .. وهو القائد والإمام المطاع والمتَّبع عند نزوله .. والذي يسيء الأدب والاحترام مع عيسى عليه السلام أو يطعن به .. يخرج من دائرة الإسلام بإجماع علماء الإسلام .. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل أمة النصارى التي تزعم الانتماء إلى عيسى عليه السلام تبادل أمة الإسلام، ونبي الإسلام نفس المشاعر، والاحترام؟ وإن كان الجواب بالنفي، يرد السؤال الآخر: أي الفريقين أولى بدعوى السَّلام، والأمان، والإيمان، والمحبّة .. وأي الفريقين يمد يدَ السَّلام للآخر أكثر؟!

ــ لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بأخيه عيسى عليه السلام في الإسراء والمعراج.

من المواقف التي تُذكَر لقاءُ النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأخيه عيسى بن مريم عليهما السلام، في السماء، في رحلة الإسراء والمعراج الشهيرة، والمتواتر خبرها ونقلها، كما في صحيح البخاري، من حديث الإسراء والمعراج الطويل، قال

---

[69] السلسلة الصحيحة: 2733.

صلى الله عليه وسلم: "قال جِبريلُ لخازنِ السماءِ: افتَحْ، قال: مَن هذا؟ قال: هذا جِبريلُ، قال: هل معَك أحدٌ؟ قال: نعمْ؛ معي محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أُرسِلَ إليه؟ قال: نعمْ. فلما فتَح علَونا السماءَ الدنيا، فإذا رجلٌ قاعدٌ، على يمينِه أسوِدَةٌ، وعلى يسارِه أسوِدَةٌ، إذا نظَر قِبَلَ يمينِه ضحِك، وإذا نظَر قِبَلَ يسارِه بَكى، فقال: مرحبًا بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ، قلتُ لِجبريلَ: مَن هذا؟ قال: هذا آدَمُ، وهذه الأسوِدَةُ عن يمينِه وعن شمالِه نسَمُ بنيه، فأهلُ اليمينِ منهم أهلُ الجنةِ، والأسوِدَةُ التي عن شمالِه أهلُ النارِ، فإذا نظَر عن يمينِه ضحِك، وإذا نظَر قِبَلَ شمالِه بَكى، حتى عرَج بي إلى السماءِ الثانيةِ، فلما مرَّ جِبريلُ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإدريسَ، قال: مرحبًا بالنبيِّ الصالحِ والأخِ الصالحِ. فقلتُ: مَن هذا ؟ قال: هذا إدريسُ، ثم مرَرتُ بموسى، فقال: مرحبًا بالنبيِّ الصالحِ والأخِ الصالحِ، قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مرَرتُ بعيسى، فقال: مرحبًا بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالحِ، قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مرَرتُ بإبراهيمَ، فقال: مرحبًا بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ، قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ...".

وفي رواية عند مسلم: "ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الثَّانيةِ، فاستفتَح جِبْريلُ عليه السَّلامُ، فقيل: مَن أنتَ؟ قال: جِبْريلُ، قيل: ومَن معكَ؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَيِ الخالةِ عيسى بنِ مَريمَ ويحيى بنِ زكريَّا صلواتُ اللهِ عليهما، فرحَّبَا ودعَوَا لي بخيرٍ ...".

ـــ محمد وعيسى عليهما الصَّلاة والسَّلام، يوم القيامة.

ومن ذلك حديث الشفاعة الطويل، والمتواتر، والذي جاء فيه كما في صحيح البخاري، قال صلى الله عليه وسلم: "أنا سيدُ الناسِ يومَ القيامةِ، وهل تدرون ممَّ ذلك؟ يجمعُ اللهُ الناسَ الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، يُسمعُهم الداعي ويَنفُذُهم البصرُ، وتدنو الشمسُ، فيبلغُ الناسُ من الغمِّ والكربِ ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقولُ الناسُ: ألا ترون ما قد بلغَكم، ألا تنظرون من يشفعُ لكم إلى ربِّكم؟ فيقولُ بعضُ الناسِ لبعضٍ: عليكم بآدمَ، فيأتون آدمَ عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشرِ، خلقَك اللهُ بيدِه، ونفخَ فيك من روحِه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقولُ آدمُ: إن ربي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنه نهاني عن الشجرةِ فعصيتُه، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوحٍ، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوحُ، إنك أنت أولُ الرسلِ إلى أهل الأرضِ، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقولُ: إن ربي عز وجل قد غضبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيمَ، فيأتون إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيمُ، أنت نبيُّ اللهِ وخليلُه من أهلِ الأرضِ، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقولُ لهم: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه؛ وإني قد كنتُ كذبتُ ثلاثَ كَذَباتٍ نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى،

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ الله، فضلك اللهُ برسالتِه وبكلامِه على الناسِ، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقولُ: إن ربي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإني قد قتلتُ نفسًا لم أومرَ بقتلِها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وكلَّمتَ الناسَ في المهدِ صبيًا، اشفعْ لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يغضبْ قبلَه مثلَه قطُّ، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه - ولم يذكر ذنبًا - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فيأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمدُ أنت رسولُ الله، وخاتمُ الأنبياءِ، وقد غفر اللهُ لك ما تقدمَ من ذنبِك وما تأخَّرَ، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحتَ العرشِ ، فأقعُ ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ من محامدِه وحسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْه على أحدْ قبلي، ثم يُقالُ: يا محمدُ ارفعْ رأسَك، سلْ تُعطَه، واشفعْ تُشَفَّعْ ..." متفق عليه.

وفي رواية عند مسلم: "قال موسى: اذهبوا إلى عيسى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسولُ الله، وكَلَّمْتَ الناسَ في المهدِ، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريمَ، ورُوحٌ منه، فاشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلَغَنا؟ فيقول لهم عيسى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: إن ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضَبًا لم يَغضبْ قبلَه مِثلَه ولن يَغضبَ بعدَه مِثلَه ــ ولم يَذكُرْ له ذنبًا ــ نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فيأتوني فيقولون: يا مُحَمَّدُ !

أنت رسولُ اللهِ وخاتَمُ الأنبياءِ، وغفر اللهُ لك ما تقَدَّم من ذنبِك وما تأخر، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأَنطلِقُ فآتي تحتَ العرشِ فأقعُ ساجدًا لربي، ثم يَفتحُ اللهُ عليَّ ويُلهِمُنِي من مَحامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يَفْتَحْهُ لأحدٍ قبلي، ثم يُقالُ: يا مُحَمَّدُ، ارفعْ رأسَك، سَلْ تُعْطَهْ، اشفعْ تُشَفَّعْ، فأرفعُ رأسِي، فأقولُ: يا ربِّ أمتي، أمتي ...". وفي رواية: " فيأتون موسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: لستُ هناكُم، ويذكُرُ خَطيئتَه الَّتي أصاب، فيستحْيي ربَّه منها، ولكن ائتوا عِيسَى روحَ اللهِ وكلِمَتَه، فيَأتون عيسَى روحَ اللهِ وكلِمتَه، فيقولُ: لستُ هناكُم، ولكن ائتوا محمَّدًا صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، عَبدًا قد غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبِه وما تأخَّر ..."مسلم. وفي رواية عند أحمد: "فيَقولُ عيسى: ليس ذاكُم عِندي، ولكنِ انطَلِقوا إلى سَيِّدِ ولدِ آدَمَ؛ فإنَّه أوَّلُ مَن تَنشَقُّ عنه الأرضُ يَومَ القيامةِ، انطَلِقوا إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَشفَعَ لكُم إلى ربِّكُم عزَّ وجلَّ ..."[70].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنِّي لقائمٌ أنتَظرُ أُمَّتي تعبرُ، إذْ جاء عيسَى عليهِ السَّلامُ، قال: فقالَ هذهِ الأنبياءُ قَد جاءتْك يا محمَّدُ! يسألونُ أو قالَ: يجتَمعونَ إليك تَدعو اللهَ أن يُفرِّقَ بينَ جمْعِ الأممِ إلى حَيثُ يشاءُ؛ لعِظَمِ ما همْ فيهِ؛ فالخَلقُ مُلجَّمونَ في العرَقِ، فآمَّا المؤمنُ فهوَ عليهِ كالزَّكْمَةِ، وأمَّا الكافرُ فيتغشَّاهُ الموتُ، قال: يا عيسَى انتَظرْ حتَّى أرجعَ إليكَ، قال: وذَهب نبيُّ اللهِ فقام تحتَ العرشِ، فلَقِيَ ما لَم يَلْقَ ملَكٌ مُصطفىً، ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، فأوحى اللهُ إلى جبريلَ عليهِ السَّلامُ: أن اذهبْ إلى محمَّدٍ فقل لهُ: ارفَعْ رأسَكَ سلْ تُعطَه، واشفَعْ تُشفَّعْ، قال: فشُفِّعتُ

[70] أخرجه أحمد في مسنده، قال أحمد شاكر 1/ 29: إسناده صحيح.

في أُمَّتي أن أخرِجْ من كلِّ تِسعةٍ وتِسعينَ إنسانًا واحدًا، قال فما زِلتُ أتردَّدُ على ربِّي فلا أقومُ فيهِ مقامًا إلاشُفِّعتُ، حتَّى أعطاني اللهُ من ذلكَ أن قال: أدْخِلْ من أمّتكَ مِن خَلقِ اللهِ مَن شهدَ أن لا إله إلَّا اللهُ يومًا واحِدًا مخلصًا، وماتَ علَى ذلكَ" [71].

وفي صحيح مسلم: "أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إبراهيم:36. وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة:118. فرفعَ يديهِ وقال اللهمَّ! أُمَّتي أُمَّتي، وبكى. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ! اذهب إلى محمدٍ ــ وربُّكَ أعلمُ ــ فسَلهُ ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ، وهو أعلمُ، فقال اللهُ: يا جبريلُ! اذهبْ إلى محمدٍ، فقلْ: إنَّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوءُكَ".

ــ الفترة الزمنية التي يمكثها عيسى عليه السلام في الأرض، بعد نزوله من السماء.

بعد انتهاء فتنة يأجوج ومأجوج، تضع الحرب أوزارها، ويتوقف القتال، ويسود الأمن والأمان والسلام في الأرض كلها، فلا يُخشى على الشاة من الذئاب الضارية، ويكون الناس كلهم على ملة واحدة هي ملة الإسلام، وعبادة الله تعالى وحده، تُنتزع من صدورهم الأحقاد، والضغائن، والبغضاء، والتحاسد، ويفيض

[71] صحيح الترغيب: 3639.

المال حتى لا يقبله أحد، وتقع البركة في الأرزاق .. ويمكث عيسى عليه السلام بين الناس إمامًا مقسطًا وحكمًا عدلًا وهم في هذا الرغد من العيش الهانئ والآمن، أربعين سنةً، هي أفضل وأهنأ سنوات الأرض، ثم يتوفاه الله، فيدفن في الأرض، ويُصلي عليه المسلمون .. وفي هذا المعنى قد وردت أحاديث عديدة عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا أَوْلى النَّاسِ بعيسى ابنِ مَريمَ إنَّه ليس بَيْني وبَيْنَه نَبيٌّ وإنَّه نازِلٌ ... يُهلِكُ اللهُ في زمانِه المِلَلَ كلَّها إلَّا الإسلامَ، ويُهلِكُ المَسيحَ الدَّجَّالَ، وتقَعُ الأَمَنةُ في الأرضِ حتَّى ترتَعَ الأُسْدُ مع الإبلِ، والنِّمارُ مع البقرِ، والذِّئابُ مع الغَنَمِ، ويلعَبُ الصِّبيانُ بالحيَّاتِ لا تضُرُّهم، فيمكُثُ في الأرضِ أربعينَ سَنةً، ثمَّ يُتوفَّى فيُصَلِّي عليه المُسلِمونَ صلواتُ اللهِ عليه" [72]. وفي رواية عند الطبري في التفسير: "وتقعُ في الأرضِ الأَمَنَةُ حتى ترتَعَ الأسودُ مع الإبلِ، والنُّمُرُ مع البقرِ، والذئابُ مع الغنمِ، وتلعبَ الغِلمانُ بالحياتِ، لا يضرُّ بعضُهم بعضًا، فيثبُتُ في الأرضِ أربعين سنةً، ثم يُتوفَّى ويصلِّي المسلمون عليه ويدفِنوه" [73].

وقال صلى الله عليه وسلم: "يكونُ عيسى ابنُ مريمَ في أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا، وإمامًا مُقْسِطًا يَدُقُّ الصليبَ، ويَذْبَحُ الخِنْزيرَ، ويضعُ الجِزْيةَ، ويتركُ الصدقةَ، فلا يَسْعَى على شاةٍ ولا بعيرٍ، وتُرْفَعُ الشحناءُ والتباغُضُ، وتُنْزَعُ حِمَةُ كلِّ ذاتِ حِمَةٍ ــ أي من كل ذات سم ــ حتى يُدْخِلَ الوليدُ يدَه في فِيِّ الحَيَّةِ، فلا تَضُرُّه، وتَضُرُّ الوليدةُ

---

[72] صحيح ابن حبان، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وانظر السلسلة الصحيحة: 2183.

[73] قال ابن جرير الطبري في التفسير: متواتر.

الأسدَ فلا يَضُرُّها، ويكونُ الذئبُ في الغنمِ كأنه كلبُها، وتُمْلَأُ الأرضُ من السِّلْمِ كما يُمْلَأُ الإناءُ من الماءِ، وتكونُ الكلمةُ واحدةً، فلا يُعْبَدُ إلا اللهُ، وتضعُ الحربُ أوزارَها، وتكونُ الأرضُ كفاثورِ الفِضَّةِ ــ أي كطست أو إناء من فضة ــ تُنْبِتُ نباتَها بعَهْدِ آدمَ ــ أي كما كانت تنبت في عهد آدم من حيث الكبر والبركة ــ حتى يجتمعَ النَّفَرُ على القِطْفِ من العنبِ فيُشْبِعُهم، ويجتمعُ النَّفَرُ على الرُّمَّانةِ فتُشْبِعُهم، ويكونُ الثَّوْرُ بكذا وكذا من المالِ، ويكونُ الفَرَسُ بالدُّرَيْهِماتِ .."[74].

وسبب رخص الفرس؛ أن الجهاد يتوقف، والحرب تضع أوزارها، فلا يوجد ما يبرر استمرارها، فلم تعد الحاجة موجود لاقتناء الخيول. وفي رواية: "وحتَّى تكونَ السَّجدَةُ الواحِدةُ خيرًا من الدُّنيَا وما فيهَا " متفق عليه. وعِلة ذلك أنه لم بعد يوجد ما يُتقريب به إلى الله كالجهاد، أو بذل الصدقات، أو حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه أبواب من الخير تُغلق في ذلك الزمان، لعدم وجود الحاجة إليها، فيستعيض عنها الناس بالصلاة وكثرة السجود.

وفي صحيح مسلم: "ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأرْضَ حتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ــ أي كالمرآة لشدة نظافتها ونصاعتها ــ ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَومَئذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ ــ أي اللبن ــ حتَّى أنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ ــ أي الناقة ذات اللبن ــ لَتَكْفِي الفِئَامَ ــ الجماعة الكبيرة ــ مِنَ النَّاسِ،

[74] أخرجه أبو داود، وابن ماجه، صحيح الجامع: 7875.

وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ ...". والفخذ؛ هم الأقارب الذين ينتسبون إلى جدٍّ قريب.

وقال صلى الله عليه وسلم: "طُوبَى لعيشٍ بعْدَ المسيحِ يؤذَنُ للسماءِ في القُطْرِ، ويؤذَنُ للأرْضِ في النباتِ، حتى لو بذرْتَ حَبَّكَ على الصّفَا ــ الصخرة أو الحجر الملساء ــ لنبَتَ، وحتَّى يَمُرَّ الرجلُ على الأسَدِ فلا يضرُّهُ، ويطَأَ على الحيَّةِ فلا تضرُّهُ، ولا تَشَاحَّ، ولا تحاسُدَ، ولا تباغُضَ" [75]. وفي رواية: "ولَيُصْلِحَنَّ ذاتَ البَيْنِ، ولَيُذْهِبَنَّ الشَّحْناءَ، ولَيُعْرَضَنَّ عليهِ المالُ فلا يَقْبَلُهُ .." [76]. وفي رواية عند مسلم: "واللهِ! لينزِلَنَّ ابنُ مريمَ حَكَمًا عادلًا، فلَيَكسِرَنَّ الصليبَ، ولَيَقتُلَنَّ الخِنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزيَةَ، ولَتُترَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسعَى عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسُدُ، ولَيُدعَوُنَّ، إلى المالِ فلا يَقبَلُه أحدٌ". والقلاص؛ هي الإبل الفتية المكتملة الخلقة، حينما تصلح للركوب.

في هذا الزمان المبارك يتحقق وعد النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يَبْقى على ظَهرِ الأرضِ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدْخَلَه اللهُ كَلِمةَ الإسلامِ؛ بعِزِّ عَزيزٍ، أو ذُلِّ ذَليلٍ؛ إمَّا يُعِزُّهُم اللهُ فيَجْعَلُهم مِن أهْلِها، أو يُذِلُّهُم فيَدينون لها" [77]. وفي رواية:" ليبلغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدرٍ ولا وَبرٍ إلا أدخله اللهُ هذا الدينَ بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليلٍ، عزًّا يعزُّ اللهُ به الإسلامَ وأهلَه وذلًّا

---

[75] صحيح الجامع: 3919. والسلسلة الصحيحة: 1926.

[76] السلسلة الصحيحة: 2733.

[77] أخرجه أحمد في مسنده، وغيره، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

يذلُّ اللهُ به الكفرَ "[78]. وقوله " بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليلٍ "؛ العزيز من كان من أهله، يجاهد في سبيله، والذليل من يدخل فيه طائعاً، كارهاً ذليلاً .. وهذا لن يكون ـ بهذا الشمول وهذا التوصيف ـ إلا في عهد عيسى عليه السلام؛ عند نزوله إلى الأرض. والمدَر؛ هي بيوت الطين والحجارة، والوبَر، هي بيوت الشعر، والخيام التي تُبنى في البادية والصحراء، لأغراض الرعي وغيرها .. وهذا معناه أن كلمة الإسلام ستنتشر وستعم، وهو سيمضي بك أو بغيرك، فإما أن يمضي بك وأنت عزيز، وإما أن يمضي عليك وأنت ذليل.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ينزلُ عيسَى بنُ مريمَ فيمكثُ في الناسِ أربعينَ سنةً" [79]. وفي رواية: "ثم يلبثُ عيسى في الأرضِ أربعين سنةً، أو قريبًا من أربعين سنةً، إمامًا عدلًا، وحكمًا مقسطًا" [80]. وفي رواية: "يمكثُ عيسَى في الأرضِ بعد ما ينزلُ أربعينَ سنةً ثمَّ يموتُ ويصلِّي عليه المسلمونَ ويدفنوهُ" [81].

وقد وردت أحاديث وآثار عدة تذكر أن عيسى عليه السلام يموت في المدينة المنورة، ويدفن بجوار النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يوجد موضع لقبر رابع بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .. لكن في سندها مقال؛ لا يصح منها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأعرضنا عن ذكرها؛ لأن شرطنا في هذا الكتاب أن لا نذكر إلا ما صح من

---

[78] أخرجه أحمد وغيره، قال الهيثمي في مجمع الزوائد 6/ 17: رجاله رجال الصحيح.

[79] أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 8/ 208، وقال: رجاله ثقات.

[80] صحيح موارد الظمآن: 1599.

[81] عون المعبود 11/ 269، قال العظيم آبادي: إسناده قوي.

الأحاديث والآثار، مما شهد لها أهل العلم والاختصاص بالصحة، والله تعالى أعلم.

قال تعالى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ مريم:15. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾؛ في الأرض، فيدفن فيها، ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾، يوم يُبعث حيّاً من قبره في الأرض الذي دفن فيه، حيث القيامة، ويوم الحساب، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ النساء:159. أي قبل موته ودفنه في الأرض. وقال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ طه:55. أي من الأرض، وهذا يشمل جميع الناس، بما فيهم الأنبياء والرسل، فالأرض هي موطن القبور، ومنها يكون البعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً﴾؛ أي ضامَّة وجامعة لجميع ما يدب عليها من مخلوقات، ﴿أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً﴾ المرسلات:25-26. فالأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها.

ـ كلمات تُؤثَر عن عيسى عليه السلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأى عيسى بنُ مريمَ رجلًا يسرقُ، فقال له: أسرقتَ؟ قال: كَلَّا، واللهِ الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنتُ باللهِ، وكذَّبْتُ عيني " متفق عليه. كذَّب عينيه، وقال ما قال: تعظيماً لاسم الله تعالى، وتعظيماً لشهادة التوحيد التي تلفّظ، وأقسم بها السَّارق ...!

وقال صلى الله عليه وسلم: "أن عيسَى بنَ مريمَ عليه السلامُ قال: إنما الأمورُ ثلاثةٌ: أمرٌ تبيَّنَ لك رشدُه فاتبِعْه، وأمرٌ تبيَّن لك غيُّه فاجتنِبْته، وأمرٌ اختُلِف فيه فرُدَّه إلى عالِمِه" [82].

- الإسلامُ دِينُ الله، وهو دينُ جميع الأنبياء والرسل.

الله تعالى واحد، ودينه واحد؛ وهو الإسلام، وهو دين جميع الأنبياء والرسل، من لدنِّ آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾آل عمران:19. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾آل عمران:85. وقال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾المائدة:3.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام:﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾يونس:72. وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام وبنيه: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾البقرة:132. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾آل عمران:67. وقال تعالى عن إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾البقرة:128. وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام وبنيه: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ

---

[82] أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 1/ 162، وقال: رجاله موثقون. وقال الهيتمي المكي في الزواجر 2/ 122: صحيح.

آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾البقرة:133. وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾يوسف:101. وقال تعالى عن لوط عليه السلام وآل بيته: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾الذاريات:36. وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾يونس:84. وقال تعالى عن بلقيس في قصتها مع نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾النمل:44. وقال تعالى عن عيسى عليه السلام وأنصاره من الحواريين: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:52. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾المائدة:111.

ـ نِداء إلى النَّصارى.

ننادي النصارى بالنداء الذي أمرنا الله أن نناديهم به، وندعوهم إلى ما أمرنا الله أن ندعوهم إليه، من غير مواربة ولا مجاملة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ كلانا نحن وإياكم نلتزم بهذه الكلمة بالتساوي، فلا يتفاضل أحدنا على الآخر، ولا يتعالى بعضنا على بعض، وهي كلمة تجري علينا جميعاً، وتحكمنا جميعاً، ونلتزم بها جميعاً، وفيها منجاتنا في الدنيا والآخرة، ما هي هذه الكلمة؟ ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾؛ فلا نجعل من أنفسنا أرباباً نشرِّع من عند أنفسنا بغير سلطان من الله،

فنحل ما حرَّم الله، ونحرم ما أحل الله .. فإن أبيتم وأعرضتم، فلم يبقَ أمامنا سوى خيار المفاصلة، والمباينة، إذ لا سبيل لنا لمتابعتكم على باطلكم وشرككم، ونقول لكم كما أمرنا الله أن نقول: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران:64.

يا أيها النصارى .. كما ترون؛ إنها دعوة حق، ودعوة عدل، فكلنا سواسية أمام هذه الكلمة الحق والعدل، فإننا ندعوكم إليها صادقين، ومشفقين، ومحبين .. وأيما تقارب بين الأديان يُدعَى إليه يتجاهل هذه الكلمة الطيبة، وهذه الدعوة الحق .. فهو سراب يحسبه الظمآن ماء .. وهو في حقيقته تباعد وليس تقارباً .. وهو سير في الاتجاه المعاكس .. ومضيعة للأوقات والطاقات، وهدر للأموال في سبيل غير رشيد.

يا أيها النصارى .. تعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم حق، وأنه صادق، وأنه رسول الله، وأن عيسى عليه السلام، وجميع الأنبياء والرسل من قبله قد بشروا به .. فآمنوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، يؤتكم الله أجركم مرتين: مرة لإيمانكم بعيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله، ومرة لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه عبد الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ بعيسى عليه السلام ﴿اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾؛ محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديد:28. وفي الحديث فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"إذَا آمَنَ الرجل بعِيسَى، ثُمَّ آمَنَ بي فَلَهُ أَجْرَانِ" البخاري. وهذا يُحمل على الذكور والإناث سواء.

يا أيها النصارى .. لا يُقبل منكم أن تؤمنوا ببعض الأنبياء والرسل، وتكفروا ببعض؛ التكذيب برسول واحدٍ من رسل الله تكذيب بجميع الأنبياء والرسل؛ لأن جميع الأنبياء والرسل يصدقون بعضهم بعضاً، وهم إخوةٌ لِعَلَّاتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى ودِينُهم واحد .. وهم مثلهم في التكامل والتراص، كمثل بنيان متراص متكامل البنيان، لو انتزعت منه لبنة واحدة، لانهار البنيان كله .. كما في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري: "إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنْبِياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتِمُ النَّبِيِّينَ" البخاري.

كما أن تكذيب رسولٍ واحد من رُسل الله، هو تكذيب لله تعالى الذي أرسله، لذا أمرنا الله تعالى بأن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل، لا نفرّق بين أحد منهم، كما قال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة:136. والأسباط هم أبناء يعقوب عليه السلام، وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة:285.

يا أيها النصارى .. قُوا أنفسكم وأهليكم نار جهنم، وقودها الناسُ والحِجارة أعدَّت للكافرين، ولا تقامروا في دينكم وآخرتكم، فتقولون لنجرب الكفر والجحود، ولننظر بعد الموت ماذا سيحدث لنا .. فهذه مقامرة خاسرة، وضحكة من ضحكات الشيطان عليكم؛ سيعقبها الندم، ولات حين مندم، يقول المقامر الكافر، وبعد موته مباشرة، وبعد أن تتكشف له الحقائق، ويرى الحق عين اليقين: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ المؤمنون: 99-100. ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الفجر: 24. لأنه يُدرك أن حياته الحقيقية تبدأ بعد الموت إلى حيث لا نهاية، وأن حياته الدنيا القصيرة جداً، كانت ــ قياساً للآخرة ــ حياة صورية، وللاختبار ...!

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ " مسلم. والحديث فيه دلالتان، أولهما: أن سماع الكافر ــ أيّاً كان دينه ومعتقده ــ بعظماء الإسلام، على كثرتهم، لا يُغني عن السماع بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بينما السماع بالنبي صلى الله عليه وسلم، يغني عن السماع بالآخرين، فالحجة تقوم به لا بغيره، وفي القبر، ويوم القيامة سيكون السؤال عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لا عن غيره، بِمَ أجبناه؟ ثانيهما: الحديث فيه تعجب خفي؛ إذ كيف يسمع الكافر بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبدعوته، وسيرته العطرة، وبأخلاقه العظيمة والراقية،

ثم هو لا يؤمن .. فهذا مما يشتد له العجب .. وهو أمر لا يصدر إلا عن معاند مكابر. ودلالة ثالثة حسنة: وهي أن يتضمن السماع حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم، وحقيقة دعوته وصفته، إذ السماع بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم على وجه التكذيب، والتضليل، والتهكم، والطعن، ومن طرف المغرضين .. فحينئذ لا يكون السامع قد سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما قد سمع بشخص آخر، يختلف كلياً عن شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وليس بمثل هذا السماع تقوم الحُجة، ويُرفَع الجهل.

فإن قيل: ما هو القدر الذي إذا سمعه الكافر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تقوم به الحُجة عليه، وينتفي عنه العذر بالجهل؟

أقول: يكفي للكافِر أن يسمع ــ بلغته أو لغة يفهمها، وبأي وسيلة من الوسائل ــ العبارة التالية: أن محمداً بن عبد الله رسول الله للعالمين، أرسله الله تعالى بدين الإسلام، وشهادة التوحيد: لا إله إلا الله .. فمن بلغه هذا القدر من العلم ــ أو كان من اليسير عليه أن يبلغه هذا القدر من العِلم لكنه يأنف، ويأبى ويُعرض ــ يكون قد سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم السماع الذي به تقوم الحُجة، ويُرفع الجهل، ويستحق المعاند والمعرِض أن يكون من أصحاب النار.

إلى هنا ينتهي ــ بفضل الله وتوفيقه وعونه ــ عملي بهذا الكتاب، ويتوقف قلمي عن الكتابة فيه .. سائلاً الله تعالى القبول، وأن ينفع بهذا الكتاب كل من يقف ويطلع عليه، وأن يكون للناس سبب هداية ورشاد، ومفتاح خير، مغلاق شرٍّ .. اللهم آمين .. وصلِّ اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى عبدك ورسولك

عيسى، وعلى عبدك ورسولك موسى، وعلى جميع الأنبياء والرسل، وسلِّم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد المنعم مصطفى حليمة — 5/ 9/ 1442 هـ.

" أبو بصير الطرطوسي " — 17/ 4/ 2021 م.

www.abubaseer.bizland.com

الفهـــرس

إهـــدَاء 2

ـ مقـــدمـــة: 3

ـ مريمُ بنت عمران، البَتُولُ العَذْراءُ، عليها السَّلام..... 5

ـ آلُ عِمْرَانَ: 5

ـ امْرَأَةُ عِمْرَانَ: 6

ـ مريم عليها السَّلام في كفالة نبي الله زكريّا. 9

ـ مريم عليها السَّلام سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنّة. 13

ـ مريم عليها السَّلام صِدِّيقَة. 17

ـ البُشرَى بولادةِ المسيحِ عيسى بن مريم عليهما السّلام. 19

ـ ولادَةُ المسيح عيسى بن مريم عليهما السّلام. 24

ـ كلامُ المسيح عليه السلام وهو في المهد. 29

ـ مَثَل عيسى كمثل آدم عليهما السلام. 39

ـ براءة المسيح عليه السلام من دعوى الألوهية، أو أن يكون ابناً لله. 43

ـ براءة المسيح عليه السلام من فِرية الصّلب والقتل..... 56

فائدة: 59

تنبيه: 60

ـ خرافة عقيدة الفِداء والخَلاص..... 61

ـ الدعوة إلى المباهلة..... 71

ـ الأعمال التي قام بها المسيح عليه السلام، قبل رفعه إلى السماء. 74

ـ مبدأ ومنشأ تحريف التوراة والإنجيل!..... 81

ـ نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض..... 83

ـ الأعمال التي سيقوم بها المسيح عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض. 86

ـ موقف المسيح عليه السلام من يأجوج ومأجوج، وكيف تعامل معهم؟ 90

ـ الشريعة التي سيحكم بها المسيح عليه السلام، والدِّين الذي سيدعو إليه. 92

ـ حَجُّ المسيح عليه السلام إلى بيتِ الله الحرام. 94

ـ الصِّفاتُ الخَلْقيَّةُ للمسيحِ عيسى عليه السلام..... 95

ـ علاقة النبي محمد بأخيه المسيح عيسى عليهما الصلاة والسلام. 98

ـ لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بأخيه عيسى عليه السلام في الإسراء والمعراج.....100

ـ محمد وعيسى عليهما الصَّلاة والسَّلام، يوم القيامة.....101

ـ الفترة الزمنية التي يمكثها عيسى عليه السلام في الأرض، بعد نزوله من السماء. 105

ـ كلمات تُؤثَر عن عيسى عليه السلام.....110

- الإسلامُ دِينُ الله، وهو دينُ جميع الأنبياء والرسل 110

ـ نِداء إلى النَّصارى.....112

ـــ الفهرس 118